أضواء البيان
في إيضاح القرآن بالقرآن

تأليف الفقير إلى رحمة ربه وعفوه
محمد الأمين بن محمد المختار
الجكني الشنقيطي

مكتبة المحتسب لأبي الحسن
المدينة المنورة
١٤٣٠هـ
أوقف على المكتبة العامة

طبع على نفقة المحسن صاحب المعالي الشيخ
محمد بن عوض بن لادن
رحمه الله
وقفاً لله على طلبة العلم

الجزء الأول

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الثانية

١٤٠٠ هـ - ١٩٧٩ م

ملاحظات الجزء الاول من اضواء البيان

الصفحة	السطر	الخطـــأ	الصـــواب
٥	١٩	عسفس	عسمس زيادة نقطة
٨	٦	لاكفرن عنكم سيانكم	تلحق نقطة التاء ـ لاكفرن عنكم سيئاتكم
١٠	٢٢	حتى	طمس كرسي التاء
٤٦	٥	جغل	جعل زيادة نقطه فوق العين
٧١	١٥	وقل رب زدني علما	تلحق نقطة القاف ـ وقـــل رب زدني علما
٧٤	٦	ملة ابراهيم	تلحق نقطة الباء ـ ملة ابراهيم
٩٥	٢٣	ولا تقتلوا انمسكم	تلحق نقطة النون والفاء في سطر ٣ ولا تقتلوا انفسكم
١٢٤	٤	ماتوا حرثكم	تلحق نقطه الفاء ـ فاتوا حرثكم
١٢٧	١٠	انى شئتم	تلحق نقطة التاء ـ انى شئتم
١٨٩	٢٥	وان تماسرتم	العين مطموسة توضح ـ وان تعاسرتم
١٩٠	١٣	ودذرون	تلحق نقطة الياء ـ ويذرون
١٩٤	٩	ليحصنكم فيهـا قراءة اليا والتا والنون	لتحصنكم ـ ليحصنكم ـ لنحصنكم
٢٣٢	٢٠	وماجعل علىكم في الدين	نقص في نقط الياء تلحق ـ وما جعل عليكم في الدين
٢٤١	١	لنسألنهم اجمعـين عما كانوا يعملون	تطمس النقطة فوق العين ـ لنسألنهم اجمعين عما كانوا يعملون
ـ	٧	واولئك هم قود النار	تلحق الواو واولئك هم وقود النار
ـ	٢٠	يحسبون انما نمدهم	تلحق البا به ـ ايحسبون انما نمدهم به

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

بقلم

السيد / علي صبح المدني

القرآن الكريم كتاب الله الخالد ، وقانونه الدّائم ، وتشريعه القائم ، ومعجزة الرّسول الكبرى ، وآيته العظمى ، ومنبع الهداية ومورد السعادة ، وملاذ الدين الأعلى ؛ منه تُستنبط العبادات ، وتؤخذ الأحكام ، وبه يعرف الحلال من الحرام ؛ لا تنقضي عجائبه ، ولا تنتهي غرائبهُ ؛ كتابٌ أحكمت آياته ثم فُصّلت من لَدُنْ حكيم خبير .

ومنه نزل به الرّوح الأمين ، وبلّغه رسولُ ربّ العالمين ، أخذ المسلمون يتدبّرون آياته ، ويتدارسون محكمَه ومتشابهاتِه ؛ ويحاولون الكشف عن أسرارِه ، واستلهام معانيه ، والتّعرّف عن أغراضه ومراميه ، وكان لكل منهم منهجه في الشّرح والتأويل ، ومذهبه من الكشف والبيان ؛ فمنهم مَنْ رجع إلى لفظه ومفرداته ، ومنهم من عَمِد إلى أسلوبه وإعجازه ، ومنهم من قصد إلى كتابته ورسمه ، ومنهم من استنبط التّشريعَ والأحكام ؛ ومنهم مَنْ رام معرفة النحو والإعراب ؛ وكلّ هؤلاء وقعوا منه على البحر الزّاخر ، والكَنْز المليء بالجواهر ؛ ووضعوا في ذلك الكتب والأسفار .

وهذا كتاب « أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن » ، وضعه عمدة المحققين من العلماء ، وخاتمة الجهابذة من الفضلاء سماحة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي ؛ سلكَ في التفسير الطريقة المثلى ، والمنهج الواضح اللاحب ؛ التزم فيه تفسير القرآن بالقرآن ، مستعيناً بالقراءات السبعية المتواترة ، مبتعداً عن القراءات

الشاذة ؛ مستأنساً بالسنّة النبوية المطهرة ، معتبراً بأقوال العلماء الأثبات ممّن سبقه من المفسّرين ؛ من غير تعصّب لرأى ، أو تحيّزٍ لفريق ؛ غايتُه القول المستقيم والرّأىُ الرشيد ؛ ثم استطرد إلى ذكر الأحكام ؛ وبيان الشّرائع ، وما زَخَر به كتاب الله من القصص والمواعظ ، ومُثُل الآداب وصنوف المعارف ؛ كلُّ ذلك فى بيانٍ مشرق وأسلوبٍ سائغ ، أضْفَى عليه القرآن الكريم رَوْنقاً وقبولا ، وأُنْساً وارتياحاً ؛ فكان — كما شاء الله — من أحسن التفاسير شريعةً ومِنهاجا ، وأجمعها أبواباً وفصولا .

ومن وتوفيقه تعالى ، وجميل رعايته ، أن تقوم « مطبعة المدنى » بطبعه ، وأن تحمل راية نشرِه ، وأن تطلُع من جوانبها شمسه ، ويتألّق ضوءه ، وأن تستجيب لحاجة المسلمين ، فتُبرزه فى أجمل حُلّة وأحسن معرِض ، وأن تبذل أقصى الجهد فى ضبطه وتنسيقه ؛ فجاء والحمد لله مَراد العالم والمتعلم ، وبغية الدارس والمستفيد ؛ يَرِد شِرعتَه المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها ، فينهلون معانى القرآن الكريم من أعذب موردٍ وأصفاه .

والحمد لله رب العالمين ، وصلواته وسلامه على أشرف المرسلين ، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

غرة ذى القعدة سنة ١٣٨٦

على صبح المدنى
عفا الله عنه

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وعلى آله وصحبه ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لاشريك له ، إله الأولين والآخرين ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، الذى اصطفاه وجعله سيد ولد آدم أجمعين .

الحمد لله الذى أنزل على خاتم الرسل والأنبياء أكمل كتاب ، فكشف به ظلمات الجهل وأسباب العذاب ، وأماط به عن نفائس العلوم وذخائرها الحجاب ، وكشف به عن حقائق الدين وأسراره ومحاسنه النقاب ، وأخلص به العبادة للعزيز الوهاب ، وفتح به لنيل مآرب الدارين الباب ، وأغلق باتباعه والعمل به دون الشر جميع الأبواب ، تحيي بوابل علومه القلوب النيرة أعظم مما تحيي الأرض بوابل السحاب ، يتميز بتدبر آياته الخطأ من الصواب ، والقشور من اللباب ، وتجل ألفاظه ومعانيه وأحكامه وأخباره عن الوصمة والعاب ﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب ﴾ وعد الله متبعه ماهو خير وأبقى ، وقال فيه : ﴿فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ﴾ .

وأوعد المعرضين عنه من جميع الأحزاب النار ، قال : ﴿ ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده ﴾ وهو عام للكفار ، وشبه بالحمر المعرضين عنه من الكفرة ، قال : ﴿ فما لهم عن التذكرة معرضين ، كأنهم حمر مستنفرة ﴾ فيكفي المعرض عنه أنه حمار ، وأنه من حمير النار . وبين تعالى أن المعرض عنه يحمل يوم القيامة مالا يستطيع له حملا ، قال : ﴿ وقد آتيناك من لدنا ذكراً ، من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزراً ، خالدين فيه وساء لهم يوم القيامة حملا ﴾ فتح الله تعالى به قلوباً غلفاً ، وأعينا عمياً ، وآذاناً صماً ، وقال فيه : ﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ، ونحشره يوم

القيامة أعمى ﴾ لا تنقضى عجائبه ولايخلق على طول التكرار ، ما تعاقب الليل والنهار ، رفع الله تعالى به قوماً ووضع به آخرين ، وقال : ﴿ فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ، وأملى لهم إن كيدى متين ﴾ وهو آخر الكتب السماوية عهداً برب العالمين ، فكل الشر فى الإعراض عنه ، وكل الخير فى الإقبال عليه ، فطوبى لمن كان حجة له ، وويل لمن كان حجة عليه ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد ﴾ ففيه للمطيع أعظم وعد وللعاصى أشد وعيد .ومع هذا كله ، فإن أكثر المنتسبين للاسلام اليوم فى أقطار الدنيا معرضون عن التدبر فى آياته غير مكترثين بقول من خلقهم : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾ لا يتأدبون بآدابه ، ولا يتخلقون بما فيه من مكارم الأخلاق يطلبون الأحكام فى التشريعات الضالة المخالفة له ، غير مكترثين بقول ربهم : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ وقوله : ﴿ يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيداً ﴾ بل المتأدب بآداب القرآن المتخلق بما فيه من مكارم الأخلاق محتقر مغموز فيه عند جلهم إلا من عصمه الله فهم يحتقرونه واحتقاره لهم أشد كما قال الشافعى رحمه الله :

فهذا زاهد فى قرب هذا وهذا فيه أزهد منه فيه

وإياك يا أخى ثم إياك ، أن يزهدك فى كتاب الله تعالى كثرة الزاهدين فيه ، ولا كثرة المحتقرين لمن يعمل به ويدعو إليه ، واعلم أن العاقل الكيس الحكيم لايكترث بانتقاد المجانين ، واسمع قول الأديب الكبير محمد بن حنبل الشنقيطى الحسنى رحمه الله :

لا تسؤ بالعلم ظنا يا فتى إن سوء الظن بالعلم عطب
لا يزهدك أخى فى العلم أن غمر الجهال أرباب الأدب
إن تر العالم نضواً مرملا صفر كف لم يساعده سبب

وتر الجاهل قد حاز الفنى محرز المأمون من كل أرب
قد تجوع الأسد فى آجامها والذئاب الغبس تعتام القتب
جرع النفس على تحصيله مضض المرين ذل وسغب
لا يهاب الشوك قطاف الجنى وإبار النحل مشتار الضرب

أما بعد : فإنا لما عرفنا إعراض أكثر المتسمين باسم المسلمين اليوم عن كتاب ربهم ونبذهم له وراء ظهورهم ، وعدم رغبتهم فى وعده ، وعدم خوفهم من وعيده ؛ علمنا أن ذلك مما يعين على من أعطاه الله علماً بكتابه أن يجعل همته فى خدمته من بيان معانيه ؛ وإظهار محاسنه ، وإزالة الإشكال عما أشكل منه ، وبيان أحكامه ، والدعوة إلى العمل به ؛ وترك كل مايخالفه .

واعلم أن السنة كلها تندرج فى آية واحدة من بحره الزاخر ؛ وهى قوله تعالى : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ ومن أهم المقاصد فى ذلك ، هذا الكتاب المبارك الذى هذه ترجمته ، واعلم أن من أهم المقصود بتأليفه أمران :

أحدهما : بيان القرآن بالقرآن لإجماع العلماء على أن أشرف أنواع التفسير وأجلها تفسير كتاب الله بكتاب الله ، إذ لا أحد أعلم بمعنى كلام الله جل وعلا من الله جل وعلا ، وقد التزمنا أنا لانبين القرآن إلا بقراءة سبعية ، سواء كانت قراءة أخرى فى الآية المبينة نفسها ، أو آية أخرى غيرها ، ولا نعتمد على البيان بالقراءات الشاذة وربما ذكرنا القراءة الشاذة استشهاداً للبيان بقراءة سبعية ، وقراءة أبى جعفر ويعقوب وخلف ليست من الشاذ عندنا ولا عند المحققين من أهل العلم بالقراءات .

والثانى : بيان الأحكام الفقهية فى جميع الآيات المبينة بالفتح فى هذا الكتاب ، فإننا نبين مافيها من الأحكام ، وأدلتها من السنة ، وأقوال العلماء فى ذلك ، ونرجح ماظهر لنا أنه الراجح بالدليل من غير تعصب لمذهب معين ، ولا لقول قائل معين ، لأننا ننظر إلى ذات القول لا إلى قائله ، لأن كل كلام

فيه مقبول ومردود ، إلا كلامه صلى الله عليه وسلم ، ومعلوم أن الحق حق ولو كان قائله حقيراً .

ألا ترى أن ملكة سبأ فى حال كونها تسجد للشمس من دون الله هى وقومها لما قالت كلاماً حقاً صدقها الله فيه ، ولم يكن كفرها مانعاً من تصديقها فى الحق الذى قالته ، وذلك فى قولها فيما ذكر الله عنها: ﴿ إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة ﴾ فقد قال تعالى مصدقاً لها فى قولها : ﴿ وكذلك يفعلون ﴾ وقد قال الشاعر :

لا تحقرن الرأى وهو موافق حكم الصواب إذا أتى من ناقص
فالدر وهو أعز شىء يقتنى ما حط قيمته هوان الغائص

قد تضمن هذا الكتاب أموراً زائدة على ذلك ، كتحقيق بعض المسائل اللغوية ومايحتاج إليه من صرف وإعراب ، والاستشهاد بشعر العرب وتحقيق مايحتاج إليه فيه من المسائل الأصولية والكلام على أسانيد الأحاديث ، كما ستراه إن شاء الله تعالى .

واعلم أن أنواع البيان المذكورة فى هذا الكتاب المبارك كثيرة جداً . وقد أردنا أن نذكر فى هذه الترجمة جملا من ذلك ليعلم بها الناظر كثرة ماتضمنه هذا الكتاب المبارك من أنواع بيان القرآن بالقرآن ، ويكون على بصيرة فى الجملة من فائدته قبل الوقوف على جميع مافيه .

وبعد ذلك نذكر مقدمة فى تعريف الإجمال والبيان ، ومايحتاج إليه من مسائلهما من غير تطويل فى ذلك ، ثم نشرع إن شاء الله فى المقصود مرتباً على ترتيب سور القرآن العظيم ، ونرجو من الله الكريم على مافينا أن نكون داخلين فى قوله صلى الله عليه وسلم الثابت فى صحيح البخارى من حديث أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » وفى رواية له : « إن أفضلكم من تعلم القرآن وعلمه » كما نرجوه تعالى أن يوفقنا للعمل بما علمنا من كتابه ، والتخلق بما فيه من المكارم ، والتأديب بآدابه ، وأن يعلمنا ما جهلناه ، ويذكرنا مانسينا منه ، وأن يرزقنا إخلاص

النية فى جميع الأعمال ، وأن يحفظنا بفضله ورحمته من فساد القصد فى الأعمال إنه رحيم كريم .

اعلم وفقنى الله وإياك لما يحبه ويرضاه ، أن من أنواع البيان التى تضمنها هذا الكتاب المبارك بيان الإجمال الواقع بسبب اشتراك ، سواء كان الاشتراك فى اسم أو فعل أو حرف ، ومثال الإجمال بسبب الاشتراك فى اسم قوله تعالى ﴿ ثلاثة قروء ﴾ لأن القرأ مشترك بين الطهر والحيض ، وقد أشار تعالى إلى أن المراد بأقراء العدة الأطهار بقوله : ﴿ فطلقوهن لعدتهن ﴾ فاللام للتوقيت ووقت الطلاق المأمور به فيه فى الآية الطهر لا الحيض ، وتدل له قرينة زيادة التاء فى قوله « ثلاثة قروء » لدلالتها على تذكير المعدود وهو الأطهار ، فلو أراد الحيضات لقال ثلاث قروء بلا هاء ، لأن العرب تقول : ثلاثة أطهار وثلاث حيضات .

وسترى بعض الكلام على هذه المسألة فى هذه الترجمة وتحقيق المقام فيها بأدلته فى سورة البقرة إن شاء الله تعالى .

ومن أمثلة الاشتراك فى اسم قوله تعالى : ﴿ وليطوفوا بالبيت العتيق ﴾ فإن العتيق يطلق بالاشتراك على القديم ، وعلى المعتق من الجبابرة وعلى الكريم وكلها قيل به فى الآية وتصريح الله بأنه أقدم البيوت التى وضعت للناس فى قوله : ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا ﴾ الآية ، يدل للأول ومثال الإجمال بسبب الاشتراك فى فعل قوله تعالى : ﴿ والليل إذا عسعس ﴾ فإنه مشترك بين إقبال الليل وإدباره ، وقد جاءت آية تؤيد أن معناه فى الآية أدبر وهى قوله تعالى : ﴿ والليل إذا أدبر * والصبح إذا أسفر ﴾ فيكون عسعس فى الآية بمعنى أدبر يطابق معنى آية المدثر هذه كما ترى ، ولكن الغالب فى القرآن أنه تعالى يقسم بالليل وظلامه إذا أقبل ، وبالفجر وضيائه إذا أشرق ، كقوله تعالى : ﴿ والليل إذا يغشى * والنهار إذا تجلى ﴾ وقوله : ﴿ والنهار إذا جلاها * والليل إذا يغشاها ﴾ وقوله : ﴿ والضحى والليل إذا سجى ﴾

إلى غير ذلك من الآيات ، والحمل على الغالب أولى وهذا هو اختيار ابن كثير وهو الظاهر خلافاً لابن جرير .

وسترى إيضاح هذا المبحث إن شاء الله فى سورة التكوير ، ومن أمثلة الاشتراك فى فعل قوله تعالى : ﴿ ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ﴾ فإنه مشترك بين قولهم : عدل به غيره إذا سواه به . ومنه قول جرير :

أتعلبة الفوارس أم رياحاً عدلت بهم طهية والخشابا

أى سويتهم بهم وبين قولهم : عدل بمعنى مال وصد ويدل للأول قوله تعالى : ﴿ تالله إن كنا لفى ضلال مبين * إذ نسويكم برب العالمين ﴾ وقوله : ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ﴾ الآية .

ومثال الإجمال بسبب الاشتراك فى حرف قوله تعالى : ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ﴾ فإن الواو فى قوله : « وعلى سمعهم » وقوله : « وعلى أبصارهم » محتملة للعطف على ما قبلها وللاستئناف ، ولكنه تعالى بين فى سورة الجاثية أن قوله هنا : « وعلى سمعهم » معطوف على قلوبهم ، وأن قوله : « وعلى أبصارهم غشاوة » جملة مستأنفة مبتدأ وخبر ، فيكون الختم على القلوب والأسماع والغشاوة على خصوص الأبصار ، والآية التى بين بها ذلك هى قوله تعالى : ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة ﴾ وسترى فى سورة البقرة الجواب عن آية النحل إن شاء الله تعالى .

ومن أمثلة الاشتراك فى حرف أيضاً الاشتراك فى الواو من قوله : ﴿ والراسخون فى العلم ﴾ فإنها محتملة للعطف فيكون الراسخون فى العلم يعلمون تأويل المتشابه ومحتملة للاستئناف ، فيكون الله تعالى مستأثراً بعلمه دون خلقه وفى الآية قرائن ترجح أنها للاستئناف أوضحها ابن قدامة فى روضة الناظر قال : وفى الآية قرائن تدل على أن الله سبحانه وتعالى منفرد بعلم تأويل المتشابه وأن الوقف الصحيح عند قوله تعالى : ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله ﴾ لفظاً

ومعنى ، أما اللفظ فلأنه ذم مبتغى التأويل ، ولو كان ذلك للراسخين معلوما لكان مبتغية ممدوحا لا مذموما ، ولأن قولهم : « آمنا » يدل على نوع تفويض وتسليم لشيء لم يقفوا على معناه إلى آخره . وستري تمامه وتفصيله إن شاء الله في سورة آل عمران .

ومن أمثلة الاشتراك في حرف قوله تعالى : ﴿ فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ﴾ فإن لفظة « من » مشتركة بين التبعيض وابتداء الغاية ، وقد قال الشافعي وأحمد ـ رحمهما الله ـ هي في هذه الآية الكريمة للتبعيض ، فاشترطا صعيداً له غبار يعلق باليد ، وقال مالك وأبو حنيفة ـ رحمهما الله ـ هي لابتداء الغاية فلم يشترطا ماله غبار ، بل أجاز التيمم على الرمل والحجارة وقولهما أنسب ، لأن قوله تعالى بعده : ﴿ ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ﴾ نكرة في سياق النفي زيدت قبلها لفظة « من » لتوكيد العموم ، والنكرة إذا كانت كذلك فهي نص صريح في شمول النفي لجميع أفراد الجنس والتكليف بخصوص ماله غبار لا يخلو من حرج ، لأن كثيراً من بلاد الله لا يوجد فيها إلا الجبال والرمال ، وسيأتي تحقيق هذا المبحث وإيضاحه بالسنة في سورة المائدة إن شاء الله تعالى .

والمقصود في الترجمة مطلق المثال ، ومن أنواع البيان التي تضمنها هذا الكتاب المبارك بيان الإجمال الواقع بسبب إبهام في اسم جنس جمعاً كان أو مفرداً ، أو اسم جمع أو صلة موصول أو معنى حرف فمثال الإبهام في اسم جنس بمجموع قوله تعالى : ﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات ﴾ فقد أبهمها هنا وذكرها في قوله تعالى في سورة الأعراف : ﴿ قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾ ومن أمثلته في اسم جنس مفرد قوله تعالى : ﴿ وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ﴾ الآية ـ فقد أبهمها هنا وبينها بقوله : ﴿ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الأرض ونرى فرعون وهامان

وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ﴾ ومن أمثلته قوله : ﴿ ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ﴾ فقد بينها بقوله : ﴿ ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس ﴾ الآية — ونحوها من الآيات . ومن أمثلته قوله : ﴿ وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم ﴾ فقد بين عهده بقوله : ﴿ لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلى وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً ﴾ وبين عهدهم بقوله : ﴿ لأكفرن عنكم سيآتكم ﴾ الآية — ومن أمثلته قوله : ﴿ حتى يبلغ أشده ﴾ لأن الأشد يتناول البلوغ ويتناول ثلاثين سنة وأربعين وستين وغير ذلك ، كما قيل فيه بكل ذلك . ومن إطلاقه على الخمسين قول سحيم بن وثيل :

أخو خمسين مجتمع أشدى ونجذنى مداورة الشؤون

ولكن الله تعالى بين أن المراد به فى شأن اليتيم بلوغ النكاح بقوله تعالى : ﴿ حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم ﴾ ومثال الإجمال بسبب الإبهام فى اسم جمع قوله تعالى فى سورة الدخان : ﴿ كم تركوا من جنات وعيون * وزروع ومقام كريم * ونعمة كانوا فيها فاكهين * كذلك وأورثناها قوما آخرين ﴾ فالقوم : اسم جمع وقد أبهمه هنا وكذلك قوله فى الأعراف : ﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ﴾ الآية — فإنه أبهم فيه القوم أيضاً ولكنه بين فى سورة الشعراء أن المراد بأولئك القوم بنو إسرائيل لقوله فى القصة بعينها : ﴿ كم تركوا من جنات وعيون * وكنوز ومقام كريم * ونعمة كانوا فيها فاكهين * كذلك وأورثناها بنى إسرائيل ﴾ الآية — ومن أمثلته قوله تعالى : ﴿ وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين ﴾ فإنه أبهم هؤلاء القوم هنا ولكنه أشار إلى أنهم سبأ بقوله عن الهدهد مقرراً له : ﴿ إنى أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبإ بنبإ يقين . إنى وجدت امرأة تملكهم ﴾ الآية — ومثال الإجمال بسبب الإبهام فى صلة موصول قوله تعالى : ﴿ أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم ﴾ فقد أبهم هنا هذا المتلو عليهم الذى هو صلة الموصول

ولكنه بينه بقوله : ﴿ حرمت عليكم الميتة والدم ﴾ الآية ـ ومن أمثلته قوله تعالى : ﴿ صراط الذين أنعمت عليهم ﴾ فإنه أبهم هنا هؤلاء الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ﴾ ومن أمثلته قوله تعالى : ﴿ وتخفي في نفسك ما الله مبديه ﴾ فإنه هنا أبهم هذا الذي أخفاه صلى الله عليه وسلم في نفسه وأبداه الله ، ولكنه أشار إلى أن المراد به زواجه زينب بنت جحش حيث أوحى إليه ذلك وهي في ذلك الوقت تحت زيد بن حارثة ، لأن زواجه إياها هو الذي أبداه الله بقوله : ﴿ فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها ﴾ وهذا هو التحقيق في معنى الآية الذي دل عليه القرآن وهو اللائق بجنابه صلى الله عليه وسلم وبه تعلم أن مايقوله كثير من المفسرين من أن ما أخفاه في نفسه صلى الله عليه وسلم وأبداه الله وقوع زينب في قلبه ومحبته لها وهي تحت زيد وأنها سمعته قال : « سبحان مقلب القلوب » إلى آخر القصة فإنه كله لاصحة له ، والدليل عليه أن الله لم يبد من ذلك شيئاً مع أنه صرح بأنه مبدي ما أخفاه رسوله صلى الله عليه وسلم .

وسترى إن شاء الله تحقيق المقام في هذه المسألة في سورة الأحزاب ، ومثال الإبهام في معنى حرف قوله تعالى : ﴿ وأنفقوا مما رزقناكم ﴾ فإن لفظة « من » فيه للتبعيض ولكن هذا البعض المدلول عليه بحرف التبعيض المأمور بإنفاقه مبهم هنا ، وقد بينه تعالى بقوله : ﴿ ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو ﴾ الآية ـ والعفو الزائد على الحاجة الضرورية ، وسترى إيضاحه في أول سورة البقرة إن شاء الله تعالى .

ومن أنواع البيان في هذا الكتاب المبارك بيان الإجمال الواقع بسبب احتمال في مفسر الضمير وهو كثير ؛ ومن أمثلته قوله تعالى في سورة العاديات ﴿ وإنه على ذلك لشهيد ﴾ فإن الضمير يحتمل أن يكون عائداً إلى الإنسان ، وأن يكون عائداً إلى رب الإنسان المذكور في قوله : ﴿ إن الإنسان لربه لكنود ﴾ ولكن النظم الكريم يدل على عوده إلى الإنسان وإن كان هو الأول في اللفظ بدليل قوله بعده : ﴿ وإنه لحب الخير لشديد ﴾ فإنه

للإنسان بلا نزاع ، وتفريق الضمائر بجعل الأول للرب والثانى للانسان لا يليق بالنظم الكريم .

ومن أنواع البيان التى تضمنها هذا الكتاب المبارك أن يذكر شىء فى موضع ثم يقع سؤال عنه وجواب فى موضع آخر كقوله تعالى : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ فإنه لم يبين هنا ما المراد بالعالمين ، ولكنه وقع سؤال عنهم وجواب فى موضع آخر ، وهو قوله تعالى : ﴿ قال فرعون وما رب العالمين * قال رب السموات والأرض وما بينهما ﴾ الآية - وسؤال فرعون هذا - لعنه الله - وإن كان فى الأصل عن الرب جل وعلا ، فقد دخل فيه الجواب عن المراد بالعالمين كما ترى ، ومن أمثلته قوله تعالى : ﴿ مالك يوم الدين ﴾ فإنه لم يبينه هنا مع أنه وقع سؤال عنه وجواب فى موضع آخر وهو قوله : ﴿ وما أدراك ما يوم الدين * ثم ما أدراك ما يوم الدين * يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً ﴾ الآية .

ومن أنواع البيان التى تضمنها هذا الكتاب المبارك أن يكون الظاهر المتبادر من الآية بحسب الواضع اللغوى غير مراد بدليل قرآنى آخر على أن المراد غيره ومثاله قوله تعالى : ﴿ الطلاق مرتان ﴾ الآية - فإن ظاهره المتبادر منه أن الطلاق كله محصور فى المرتين ، ولكنه تعالى بين أن المراد بالمحصور فى المرتين خصوص الطلاق الذى تملك بعده الرجعة بقوله : ﴿ فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره ﴾ ومن أمثلته قوله تعالى ﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده ﴾ فإن المتبادر من مفهوم الغاية أنه إذا بلغ أشده ، فلا مانع من قربان ماله بغير التى هى أحسن ، ولكنه تعالى بين أن المراد بالغاية أنه إن بلغها يدفع إليه ماله إن أونس منه الرشد ، وذلك فى قوله : ﴿ حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشداً ﴾ الآية .

ومن أنواع البيان التى تضمنها هذا الكتاب المبارك أن يقول بعض العلماء فى الآية قولا ، ويكون فى نفس الآية قرينة تدل على بطلان ذلك القول ، ومثاله قول أبى حنيفة - رحمه الله - إن المسلم يقتل بالكافر الذمى مثلا

قائلا إن ذلك يفيده عموم النفس بالنفس فى قوله: ﴿وكتبنا عليهم فيها﴾ الآية- فإن قوله تعالى فى آخر الآية : ﴿فمن تصدق به فهو كفارة له﴾ الآية - قرينة على عدم دخول الكافر ، لأن صدقته لا تكفر عنه شيئا إذ لا تنفع الأعمال الصالحة مع الكفر ، كما سترى تحقيقه فى المائدة إن شاء الله تعالى ، ومن أمثلته قول الحسن البصرى-رحمه الله تعالى- إن المراد بابنى آدم فى قوله ﴿ واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق إذ قربا قربانا﴾ الآية - رجلان من بنى إسرائيل فإن قوله تعالى : ﴿فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوأة أخيه﴾ الآية - دليل على أن ذلك وقع فى مبدأ الأمر قبل أن يعلم الناس دفن الموتى ، أما فى زمن بنى إسرائيل فلا يخفى دفن الموتى على أحد ، ولا يحتاج إسرائيلى البتة إلى تعلم دفن الميت من الغراب كما هو ظاهر ، ومن أمثلته قول مجاهد - رحمه الله - إن المراد بقوله : ﴿ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثل ما قتل من النعم﴾ أنه متعمد لقتله ناس لإحرامه ، فإن قوله تعالى فى آخر الآية : ﴿ليذوق وبال أمره﴾ يدل على أنه مرتكب معصية والناسى لإحرامه غير مرتكب إثماً حتى يقال فيه ليذوق وبال أمره ، ومن أمثلته قول كثير من الناس إن آية الحجاب أعنى قوله تعالى : ﴿وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب﴾ الآية - خاصة بأزواج النبى صلى الله عليه وسلم ، فإن تعليله تعالى لهذا الحكم الذى هو إيجاب الحجاب بكونه أطهر لقلوب الرجال والنساء من الريبة فى قوله : ﴿ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن﴾ قرينة واضحة على قصد تعميم الحكم ، إذ لم يقل أحد من جميع المسلمين إن غير أزواج النبى صلى الله عليه وسلم لا حاجة إلى طهارة قلوبهن ، ولا إلى طهارة قلوب الرجال من الريبة منهن وقد تقرر فى الأصول أن العلة قد تعمم معلولها وإليه أشار فى مراقى السعود بقوله :

وقد تخصص وقد تعمم ... لأصلها لكنها لا تحرم

وسترى إن شاء الله تحقيق مسألة الحجاب فى سورة الأحزاب ، ومن أمثلته قول بعض أهل العلم : إن أزواجه صلى الله عليه وسلم لا يدخلن فى

أهل بيته فى قوله : ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ﴾ الآية ـ فإن قرينة السياق صريحة فى دخولهن ، لأن الله تعالى قال : ﴿ قل لأزواجك إن كنتن تردن ﴾ ثم قال فى نفس خطابه لهن : ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس ﴾ ثم قال بعده : ﴿ واذكرن مايتلى فى بيوتكن ﴾ الآية .

وأجمع جمهور علماء الأصول على أن صورة سبب النزول قطعية الدخول فلا يصح إخراجها بمخصص ، وروى عن مالك : أنها ظنية الدخول ، وإليه أشار فى مراقى السعود بقوله :

واجزم بإدخال ذوات السبب وارو عن الإمام ظناً تصب

فالحق أنهن داخلات فى الآية ، وسترى إن شاء الله تحقيق ذلك فى سورة الأحزاب ، ومن أنواع البيان التى تضمنها أيضاً أن يذكر وقوع شىء فى القرآن ، ثم يذكر فى محل آخر كيفية وقوعه كقوله تعالى : ﴿ وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده ﴾ الآية ـ فإنه لم يبين هنا كيفية الوعد بها هل كانت مجتمعة أو مفرقة ؟ ولكنه بينها فى الأعراف بقوله : ﴿ وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة ﴾ ومن أمثلته قوله تعالى : ﴿ وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون ﴾ فإنه بين كيفية إغراقه لهم فى مواضع أخر كقوله : ﴿ فقلنا اضرب بعصاك البحر فانفلق ﴾ الآية ـ وقوله : ﴿ فاضرب لهم طريقاً فى البحر يبساً ﴾ الآية ـ ومن هـذا القبيل أن يذكر وقوع أمر من غير تعرض إلى كونه وقع أولا بتنجيز أو تعليق ، ثم بين ذلك فى موضع آخر ، ومثاله قوله تعالى : ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ﴾ الآية ـ فإنه لم يبين هنا هل ذلك الأمر بالسجود وقع أولا بتنجيز أو تعليق وقد بين فى (الحجر) و (ص) أنه وقع أولا معلقاً قال فى الحجر : ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من صلصال من حمإمسنون * فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ﴾ وقال فى ص : ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من طين * فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ﴾ ، ومن أنواع البيان المذكورة

فيه أن يقع طلب لأمر ، ويبين فى موضع آخر المقصود من ذلك الأمر المطلوب ، ومثاله قوله تعالى فى الأنعام : ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ﴾ الآية ـ فإنه بين فى الفرقان أن مرادهم بالملك المقترح إنزاله أن يكون نذيراً آخر معه صلى الله عليه وسلم ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وقالوا مالهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً ﴾ ومن أنواع البيان التى تضمنها أيضاً أن يذكر أمر فى موضع ، ثم يذكر فى موضع آخر شيء يتعلق بذلك الأمر ، كأن يذكر له سبب أو مفعول أو ظرف مكان أو ظرف زمان أو متعلق ، فمثال ذكر سببه فى قوله تعالى : ﴿ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة ﴾ فإنه لم يبين هنا سبب قسوة قلوبهم ولكنه بينه بقوله : ﴿ فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية ﴾ وقوله : ﴿ فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم ﴾ .

ومن أمثلة ذكر السبب قوله تعالى : ﴿ يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ﴾ فإنه أشار هنا لسبب اسودادها بقوله : ﴿ فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم ﴾ الآية ـ وقد بينه فى مواضع أخر كقوله : ﴿ ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة ﴾ ونحوها من الآيات كما سترى إن شاء الله تحقيقه فى آل عمران .

ومن أمثلة ذكر المفعول الواحد قوله تعالى : ﴿ إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾ فإنه لم يذكر هنا مفعول يخشى ، ولكنه أشار إليه فى هود والذاريات وإيضاحه أن الإشارة فى قوله هنا : ﴿ إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾ راجعة إلى ما أصاب فرعون من النكال والعذاب المذكور فى قوله : ﴿ فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ﴾ .

فإذا عرفت ذلك فاعلم أنه تعالى صرح فى سورة هود بأن فيما أصاب فرعون من العذاب آية لمن خاف عذاب الآخرة فصرح بأن الخوف واقع على عذاب الآخرة فهو المفعول ، والخوف المذكور فى هود هو الخشية

المذكورة فى النازعات فقوله فى هود : ﴿ وما أمر فرعون برشيد يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار ـ إلى قوله ـ المرفود ﴾ وقوله بعده : ﴿ إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ﴾ يدل على أن المفعول المحذوف فى النازعات هو عذاب الآخرة لتصريحه تعالى به فى نفس القصة فى هود ويؤيده قوله تعالى فى الذاريات : ﴿ وفى موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين ﴾ الآية ؛ لأن قوله : ﴿ وفى موسى ﴾ معطوف على قوله : ﴿ وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم ﴾ فيكون المعنى : وتركنا فى قصة فرعون مع موسى وما أصابه من العذاب بسبب تكذيبه له آية للذين يخافون العذاب الأليم ففيه بيان المفعول وأنه عذاب الآخرة . كما ذكر فى هود . وسترى إن شاء الله إيضاحه فى النازعات ، ومثاله فى أحد المفعولين قوله : ﴿ ثم اتخذتم العجل ﴾ الآية . ونحوها من جميع آيات اتخاذهم العجل إلهاً فإن المفعول الثانى محذوف فى جميعها ، وتقديره اتخذتم العجل إلهاً ونكتة حذفه دائماً التنبيه على أنه لا ينبغى أن يتلفظ بأن عجلا مصطنعاً إله ، وقد أشار إلى هذا المفعول فى طه بقوله : ﴿ فكذلك ألقى السامرى فأخرج لهم عجلا جسداً له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى ﴾ ومثال ذكر ظرف المكان قوله تعالى : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ ثم بين فى سورة الروم أن السموات والأرض من الظروف المكانية لحمده جل وعلا ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وله الحمد فى السموات والأرض ﴾ الآية . ومثال ذكر ظرف الزمان قوله تعالى فى القصص : ﴿ له الحمد فى الأولى والآخرة ﴾ وقوله فى أول سبأ : ﴿ وله الحمد فى الآخرة وهو الحكيم الخبير ﴾ فبين أن الدنيا والآخرة من الظروف الزمانية لحمده ، ومن أمثلته قوله تعالى : ﴿ لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾ فإنه بين فى النساء أن شهادة الرسول واقعة يوم القيامة وذلك فى قوله : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا * يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ﴾ ومثال ذكر المتعلق قوله تعالى فى النساء : ﴿ وحرص المؤمنين

عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا ﴾ الآية . فإنه لم يبين هنا متعلق التحريض ولكنه بينه فى الأنفال بقوله : ﴿ وحرض المؤمنين على القتال ﴾ الآية . ومن أمثلته قوله تعالى : ﴿ وجاء ربك والملك صفا صفا ﴾ وقوله : ﴿ هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى ربك ﴾ الآية . فإنه ذكر فى البقرة لإتيانه جل وعلا يوم القيامة متعلقاً ، وذلك فى قوله : ﴿ هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام ﴾ الآية . فالجار والمجرور الذى هو قوله « فى ظلل » يتعلق بقوله « يأتيهم » ومن أمثلته قوله : ﴿ فإذا انشقت السماء فكانت وردة ﴾ الآية . وقوله : ﴿ وانشقت السماء فهى يومئذ واهية ﴾ وقوله : ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ فقد ذكر لانشقاقها متعلقاً فى الفرقان فى قوله : ﴿ ويوم تشقق السماء بالغمام ﴾ الآية .

ومن أنواع البيان المذكورة فى هذا الكتاب المبارك الاستدلال على أحد المعانى الداخلة فى معنى الآية بكونه هو الغالب فى القرآن فغلبته فيه دليل على عدم خروجه من معنى الآية ، ومثاله قوله تعالى : ﴿ لأغلبن أنا ورسلى ﴾ فقد قال بعض العلماء : إن المراد بهذه الغلبة ، الغلبة بالحجة والبيان ، والغالب فى القرآن هو استعمال الغلبة فى الغلبة بالسيف والسنان ، وذلك دليل واضح على دخول تلك الآية فى الغلبة ؛ لأن خير ما يبين به القرآن فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ قل للذين كفروا ستغلبون ﴾ وقوله : ﴿ ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب ﴾ وقوله : ﴿ إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وإن تكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا ﴾ وقوله : ﴿ فإن تكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله ﴾ الآية . وقوله : ﴿ ألم * غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين ﴾ إلى غير ذلك من الآيات ، وقد يكون المعنى المذكور متكرراً قصده فى القرآن ، إلا أنه ليس أغلب من قصد سواه ، والاستدلال به مذكور فى هذا الكتاب أيضاً ، وهو دون الأول فى الرتبة ، فالاستدلال به شبه الاستئناس ، ومثاله قوله تعالى :

﴿ والله محيط بالكافرين ﴾ فقد قال بعض أهل العلم معناه : مهلكهم وإطلاق الإحاطة وإرادة الإهلاك متكرر فى القرآن ، إلا أنه ليس أغلب فى معنى الإحاطة فى القرآن ومنه قوله تعالى : ﴿ وظنوا أنهم أحيط بهم ﴾ وقوله : ﴿ لتأتنى به جميعاً إلا أن يحاط بكم ﴾ على أحد القولين . وقوله : ﴿ وأحيط بثمره ﴾ الآية . وسترى هذا المبحث فى سورة البقرة إن شاء الله تعالى .

ومن هذا النوع إطلاق الظلم على الشرك كقوله : ﴿ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾ وقوله : ﴿ إن الشرك لظلم ﴾ وقوله : ﴿ والكافرون هم الظالمون ﴾ وقوله : ﴿ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذا من الظالمين﴾ كما ستراه إن شاء الله تعالى فى البقرة والأنعام .

ومن أنواع البيان المذكورة فى هذا الكتاب المبارك وهو من أهمها : بيان أن جميع ما وصف الله به نفسه فى هذا القرآن العظيم من الصفات كالاستواء واليد والوجه ونحو ذلك من جميع الصفات ، فهو موصوف به حقيقة لا مجازاً مع تنزيهه جل وعلا عن مشابهة صفات الحوادث سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيراً ، وذلك البيان العظيم لجميع الصفات فى قوله جل وعلا : ﴿ ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ﴾ فنفى عنه مماثلة الحوادث بقوله : ﴿ ليس كمثله شىء ﴾ ، وأثبت له الصفات على الحقيقة بقوله : ﴿ وهو السميع البصير ﴾ ، وسترى إن شاء الله تحقيق هذا المبحث وإيضاحه بالآيات القرآنية بكثرة فى سورة الأعراف .

ومن أنواع البيان التى تضمنها هذا الكتاب المبارك أنا إذا بينا قرآناً بقرآن فى مسألة يخالفنا فيها غيرنا ، ويدعى أن مذهبه المخالف لنا يدل عليه قرآن أيضاً ، فإنا نبين بالسنة الصحيحة صحة بياننا وبطلان بيانه ، فيكون استدلالنا بكتاب وسنة ، فان استدل من خالفنا بسنة أيضاً مع القرآن الذى استدل به ، فإننا نبين رجحان ما يظهر لنا أنه الراجح ، وكذلك إذا استدل مخالفنا بقرآن ولم يقم دليل من سنة شاهداً لنا ولا له ، فإنا نبين وجه رجحان بياننا على بيانه مثال الأولى من هذه المسائل الثلاث قولنا إن قراءة :

﴿ وأرجلكم إلى الكعبين ﴾ بالخفض المفهمة مسح الرجلين فى الوضوء تبينها قراءة « وأرجلكم » بالنصب الصريحة فى الغسل فهى مبينة وجوب غسل الرجلين فى الوضوء ، فيفهم منها أن قراءة الخفض لأجل المجاورة للمخفوض أو لغير ذلك من المعانى ، كما ستراه إن شاء الله مبيناً فى المائدة ، فيقول الشيعى القائل بمسح الرجلين فى الوضوء ، بل قراءة الخفض صريحة فى المسح على الرجلين فهى مبينة أن قراءة النصب من العطف على المحل ؛ لأن المجرور الذى هو برءوسكم فى محل نصب فنقول : السنة الصحيحة تدل صحة بياننا وبطلان بيانك ، كقوله صلى الله عليه وسلم : « ويل الأعقاب من النار » وغير ذلك من الأحاديث الصحيحة المصرحة بوجوب غسل الرجلين فى الوضوء ، ولنا أيضاً أن نقول لو سلمنا أن قراءة « وأرجلكم » بالخفض يراد بها المسح ، فلا يكون ذلك المسح إلا على خف ؛ لأن من أنزل عليه القرآن صلى الله عليه وسلم قيل له : (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم) ولم يمسح صلى الله عليه وسلم على رجليه فى الوضوء إلا على خفين ، فتكون قراءة النصب مبينة لوجوب غسلهما ، وقراءة الخفض مبينة لجواز المسح على الخفين ، وسترى تحقيق هذه المسألة إن شاء الله فى محلها من سورة المائدة

ومثال المسألة الثانية من المسائل الثلاث المذكورة قولنا : إن الأظهر فى القروء فى قوله تعالى : (ثلاثة قروء) أنها الأطهار بدليل قوله تعالى (فطلقوهن لعدتهن) والزمن المأمور بالطلاق فيه زمن الطهر لا زمن الحيض ، فدل على أن العدة بالطهر وتدل له السنة الصحيحة كقوله صلى الله عليه وسلم فى حديث ابن عمر : « فتلك العدة التى أمر الله أن يطلق لها النساء » والإشارة فى قوله : « فتلك العدة لزمن » الطهر الواقع فيه الطلاق ، وهو تصريح من النبى صلى الله عليه وسلم بأن الطهر هو العدة ، وتدل له التاء فى ثلاثة قروء كما تقدم ، واستدل من يقول : بأن القروء الحيضات بكتاب وسنة أيضاً ، أما الكتاب فقوله تعالى : ﴿ واللائى يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللائى لم يحضن) فإنه رتب العدة

بالأشهر على عدم الحيض ، فدل على أن أصل العدة بالحيض ؛ وأن الأشهر بدل من الحيضات عند عدمها ، وأما السنة فحديث اعتداد الأمة بحيضتين وحديث « دعي الصلاة أيام أقرائك » وسترى تفصيل هذه المسألة وأدلة الفريقين فى سورة البقرة إن شاء الله .

وقد ذكرنا أن كونها الأطهار أرجح دليلا فى نظرنا ، لأن آيتها أصرح وحديثها المصرح بها أصح ، ومثال المسألة الثالثة من المسائل الثلاث المذكورة بيانا أن نائب الفاعل ربيون فى قوله تعالى : ﴿ وكأين من نبي قاتل معه ربيون ﴾ على قراءة البناء للمفعول بقوله تعالى : ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ﴾ ونحوها من الآيات ، وبيانه أننا لو قلنا : إن نائب الفاعل ضمير النبي لزم على ذلك قتل كثير من الأنبياء فى ميدان الحرب ، كما تدل عليه صيغة كأين وتصريح الله تعالى بأنه كتب الغلبة لنفسه ولرسله ينفى ذلك نفيا لاخفاء به ، لاسيما وقد قال تعالى : ﴿ ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ﴾ فإن قوله تعالى : ﴿ ولا مبدل لكلمات الله ﴾ صريح فى أنه لا مبدل لكون الرسل غالبين ؛ لأن غلبتهم لأعدائهم هى مضمون كلمة كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ، فلا شك أنها من كلماته التى صرح بأنها لا مبدل لها كما ذكره القرطبي وغير واحد ، ونفى عن المنصور أن يكون مغلوباً نفيا باتا : ﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم ﴾ .

وقد أوضح تعالى أن المقتول من المتقاتلين ليس غالبا فى قوله : ﴿ ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب ﴾ الآية ـ حيث جعل الغالب قسما مقابلا للمقتول ، ومعلوم ضرورة من اللسان الذى نزل به القرآن المقتول من المتقاتلين ليس بغالب ، فهذا يبين بإيضاح أن نائب الفاعل ربيون ، ويستشهد له بقراءة قتل بالتشديد ، لأن التكثير المدلول عليه بالتشديد يدل على وقوع القتل على الربيين ، ولأجل هذه القراءة رجح الزمخشرى وابن جنى والبيضاوى والآلوسى وغيرهم أن نائب الفاعل ربيون ، وقد قدمنا أنا لا نعتمد فى البيان على القراءة الشاذة ، وإنما نذكرها استشهاداً للبيان

بقراءة سبعية كما هنا ، فيقول المخالف لنا فى هذا المسألة كابن جرير ، وابن إسحاق والسهيلى - رحمهم الله - وغيرهم قد دلت آيات أخر على أن نائب الفاعل ضمير النبى صلى الله عليه وسلم وهى الآيات المصرحة بوقوع القتل على بعض الأنبياء كقوله : ﴿ فريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون ﴾ ونحوها من الآيات ، وهى تبين أن القتل فى محل النزاع واقع على النبى صلى الله عليه وسلم فنقول : يجب تقديم بياننا على بيانكم من ثلاثة أوجه :

الأول : أن الآيات المصرحة بقتل الكفار بعض الرسل التى هى دليل بيانكم أعم من محل النزاع ؛ لأن النزاع فى قتل الرسل فى ميدان الحرب خاصة دون غيره ، والآيات التى دلت على قتل بعض الرسل ليست واحدة منها فى خصوص القتال البتة ، والبيان لا يكون بالأعم ، لأن الدليل على الأعم ليس دليلا على الأخص ، لإطباق العقلاء كافة على أن الأعم لا يقضى وجود الأخص ، فمطلق قتل الرسول لا يدل على كونه فى جهاد ، لأنه أعم من كونه فى جهاد أو غيره كما هو واضح ، بخلاف البيان الذى ذكرنا بقوله ﴿ لأغلبن أنا ورسلى ﴾ ونحوها ، فإنه فى محل النزاع ، لأنه يصرح بأن الرسل غالبون ، وهو نص فى أن الرسول المقاتل غير مقتول ، لأن المقتول غير غالب كما بينه بقوله (فيقتل أو يغلب) كما تقدم ، ومعلوم أنه لا يعارض خاص فى محل النزاع بأعم منه .

الوجه الثانى : أن البيان الذى ذكرنا تتفق به آيات القرآن العظيم على أفصح الأساليب العربية ولم يقع بينهما تصادم البتة ، وما ذكره المخالف يؤدى إلى تناقضها ومصادمة بعضها لبعض ؛ لأن الرسول الذى لم يؤمر بجهاد إذا قتل لم يكن فى ذلك إشكال ولا مناقضة لقوله : ﴿ لأغلبن أنا ورسلى ﴾ لأنه لم يؤمن بالمغالبة ؛ فلا يصدق عليه أنه مغلوب ولا غالب لعدم وجود المغالبة من أصلها فى حقه ، لأنها إن عدمت من أصلها فلا يقال غالب ولا مغلوب ، لأن الغلبة صفة إضافية لا تقوم إلا بين متغالبين بخلاف قتل الرسول المأمور بالمغالبة فى الجهاد ، فإنه مناقض لقوله ﴿ لأغلبن أنا

ورسلى ﴾ والله يقول فيما وعد به رسله : ﴿ ولا مبدل لكلمات الله ، ولقد جاء من نبأ المرسلين ﴾ .

الثالث : أن جميع الآيات الدالة على قتل بعض الرسل المستدل بها على صورة النزاع كلها واردة فى قتل الرسل فى غير جهاد ، كقتل بنى إسرائيل أنبياءهم ظلماً فى غير قتال ، وسترى إن شاء الله تعالى تحقيق هذا المبحث فى آل عمران والصافات والمجادلة ، وربما كان فى الآية الكريمة أقوال كلها حق وكل واحد منها يشهد له قرآن ، فإنا نذكرها ونذكر القرآن الدال عليها من غير تعرض لترجيح بعضها ؛ لأن كل واحد منها صحيح ومثاله قوله تعالى فى أول الأنعام : ﴿ وهو الله فى السموات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم ﴾ الآية ـ فإن فيه للعلماء ثلاثة أقوال :

الأول : أن المعنى وهو الإله أى : المعبود بحق فى السموات والأرض ويدل له قوله تعالى : ﴿ وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله ﴾ .

الثانى : أن قوله : ﴿ فى السموات وفى الأرض ﴾ متعلق بقوله : ﴿ يعلم سركم ﴾ وعليه : فالمعنى وهو يعلم سركم وجهركم فى السموات والأرض ، ويدل له قوله تعالى : ﴿ قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض ﴾ الآية .

الثالث : وهو اختيار ابن جرير أن الوقف على قوله : ﴿ فى السموات ﴾ وقوله : ﴿ وفى الأرض ﴾ متعلق بقوله : ﴿ يعلم سركم ﴾ ، ويدل له قوله تعالى ﴿ أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض ﴾ الآية ـ وسترى إن شاء الله إيضاحه فى الأنعام .

ومن أنواع البيان المذكورة فيه : تفسير اللفظ بلفظ أشهر منه وأوضح عند السامع كقوله فى حجارة قوم لوط : ﴿ وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل ﴾ الآية ، فإنه تعالى بين فى الذاريات فى القصة بعينها أن المراد بالسجيل : الطين ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين لنرسل عليهم حجارة من طين ﴾ الآية ـ من أنواع البيان المذكورة فيه أن يرد لفظ محتمل لأن يراد به الذكر وأن تراد به الأنثى ، فيبين المراد

منهما ، ومثاله قوله تعالى : ﴿ وإذا قتلتم نفساً ﴾ الآية ـ فان النفس تطلق على الذكر والأنثى ، وقد أشار تعالى إلى أنها هنا ذكر بتذكير الضمير العائد إليها فى قوله : ﴿ فقلنا اضربوه ببعضها ﴾ الآية .

ومن أنواع البيان المذكورة فيه أن يكون الله خلق شيئاً لحكم متعددة فيذكر بعضها فى موضع ؛ فأنا نبين البقية المذكورة فى المواضع الأخر ، ومثاله قوله تعالى فى سورة الأنعام : ﴿ وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها ﴾ الآية ـ فإن من حكم خلق النجوم تزيين السماء الدنيا ورجم الشياطين أيضا كما بينه تعالى بقوله : ﴿ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين ﴾ وقوله : ﴿ ولقد زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب * وحفظاً من كل شيطان مارد ﴾ ، ومن أنواعها أن يذكر أمر أو نهى فى موضع ، ثم يبين فى موضع آخر هل حصل الامتثال فى الأمر أو النهى أولا ؟ وكذلك أن يذكر شرط ثم يذكر فى موضع آخر هل حصل ذلك الشرط أولا ؟ فمثل الأمر قوله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا ـ إلى قوله ـ لانفرق بين أحد منهم ﴾ فقد بين أنهم امتثلوا هذا الأمر بقوله : ﴿ آمن الرسول ـ إلى قوله ـ لانفرق بين أحد من رسله ﴾ ومثال النهى قوله تعالى : ﴿ وقلنا لهم لاتعدوا فى السبت ﴿ فقد بين أنهم لم يمتثلوا بقوله : ﴿ ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت ﴾ الآية ـ وقوله : ﴿ واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر إذ يعدون فى السبت ﴾ الآية ـ والمراد بعضهم ، ومثال الشرط قوله : ﴿ ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ﴾ فقد بين فى أول المائدة أنهم لم يستطيعوا بقوله : ﴿ اليوم يئس الذين كفروا من دينكم ﴾ وقد بينه أيضا بقوله فى براءة والفتح والصف : ﴿ ليظهره على الدين كله ﴾ .

ومن أنواع البيان المذكورة فيه أن يذكر أن شيئاً سيقع ثم يبين وقوعه بالفعل كقوله فى الأنعام : ﴿ سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ﴾ الآية ـ وصرح فى النحل بأنهم قالوا ذلك بالفعل بقوله : ﴿ وقال الذين أشركوا

لو شاء الله ماعبدنا من دونه من شيء ﴾ الآية .

ومن أنواع البيان المذكورة فى هذا الكتاب المبارك أن يحيل تعالى على شيء ذكر فى آية أخرى ، فانا نبين الآية المحال عليها كقوله فى النساء : ﴿ وقد نزل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم ﴾ الآية ـ والآية المحال عليها هى قوله تعالى فى الأنعام : ﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره ﴾ ومن أمثلته قوله تعالى فى النحل ﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا ماقصصنا عليك ﴾ الآية ـ والمراد به ماقص عليه فى الأنعام فى قوله تعالى : ﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ﴾ الآية ـ ومن أمثلته قوله تعالى : ﴿ فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله ﴾ فإن محل الإتيان المعبر عنه بلفظة « حيث » المحال على الأمر به هنا أشير إليه فى موضعين :

أحدهما : قوله هنا : ﴿ نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم ﴾ ، لأن قوله « فأتوا » أمر منه تعالى بالإتيان ، وقوله : « حرثكم » يعين محل الإتيان وأنه فى محل حرث الأولاد وهو القبل دون الدبر فاتضح أن محل الإتيان المأمور به المحال عليه هو محل بذر الأولاد ، ومعلوم أنه القبل ، وسترى إن شاء الله تحقيق تحريم الإتيان فى الدبر فى سورة البقرة .

الثانى : قوله تعالى : ﴿ فالآن باشروهن وابتغوا ماكتب الله لكم ﴾ فقوله تعالى : ﴿ باشروهن ﴾ أى جامعوهن ، والمراد بما كتب الله لكم الولد على التحقيق وهو قول الجمهور ، وعليه فالمعنى : جامعوهن وابتغوا ماكتب الله لكم أى ولتكن تلك المجامعة فى محل ابتغاء الولد ، ومعلوم أنه القبل دون غيره ، وسترى إيضاحه إن شاء الله تعالى فى محله . ومن أنواع البيان المذكورة فيه أن يذكر شيء له أوصاف مذكورة فى مواضع أخر ، فإنا نبين أوصافه المذكورة فى تلك المواضع كقوله تعالى : ﴿ وندخلهم ظلا ظليلا ﴾ فإنا نبين صفات ظل أهل الجنة المذكورة فى غير هذا الموضع كقوله : ﴿ أكلها دائم وظلها ﴾ وقوله : ﴿ وظل ممدود ﴾ ونحو ذلك . ومنها أيضاً : أن يذكر وصف

الشيء ، ثم يذكر نقيض ذلك الوصف لضد ذلك الشيء كقوله في ظل أهل النار ﴿ انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون * انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب لا ظليل ولا يغني من اللهب ﴾ مع ذكر أوصاف ظل أهل الجنة كما قدمنا .

ومن أهم أنواع البيان المذكورة فيه أن يشير تعالى في الآية من غير تصريح إلى برهان يكثر الاستدلال به في القرآن العظيم على شيء ، فإنا نبين ذلك ، ومثاله قوله تعالى . ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون * الذي جعل لكم الأرض فراشاً ، والسماء بناء ، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ﴾ فقد أشار تعالى في هذه الآية الكريمة إلى ثلاثة براهين من براهين البعث يكثر الاستدلال على البعث بكل واحد منها في القرآن .

الأول : خلق الخلائق أولا فإنه من أعظم الأدلة على القدرة على الخلق مرة أخرى ، وقد أشار تعالى إلى هذا البرهان هنا بقوله : ﴿ الذي خلقكم ﴾ الآية ـ وأوضحه في آيات كثيرة كقوله : ﴿ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة ﴾ وقوله : ﴿ وهو الذي يبدؤ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ وقوله: ﴿ يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ﴾ والآيات بمثل هذا كثيرة جداً .

الثاني : خلق السموات والأرض ، لأن من خلق ما هو أكبر وأعظم فهو قادر على خلق ما هو أصغر بلاشك ، وأشار لذلك هنا بقوله : ﴿ الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء ﴾ وأوضحه في آيات كثيرة كقوله : ﴿ أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها ﴾ الآية ـ وقوله : ﴿ أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بل وهو الخلاق العليم ﴾ ، وقوله ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ﴾ والآيات بمثل هذا كثيرة أيضاً .

الثالث : إحياء الأرض بعد موتها ، وقد أشار له هنا بقوله : ﴿ وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ﴾ ، وأوضحه في آيات كثيرة كقوله:

﴿ إن الذى أحياها لمحيى الموتى ﴾ ،وقوله : ﴿ ويحيى الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون ﴾ ، وقوله : ﴿ وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج ﴾ والآيات بمثل ذلك كثيرة أيضاً ،وسترى إن شاء الله تعالى أمثلة كثيرة للبراهين الثلاثة المذكورة فى محلها .

ومن أنواع البيان المذكورة فيه أن يذكر لفظ عام ، ثم يصرح فى بعض المواضع بدخول بعض أفراد ذلك العام فيه كقوله : ﴿ ذلك ومن يعظم شعائر الله ﴾ الآية — فقد صرح بدخول البدن فى هذا العموم بقوله بعده : ﴿ والبدن جعلناها لكم من شعائر الله ﴾ الآية .

واعلم أن مما التزمنا فى هذا الكتاب المبارك أنه إن كان للآية الكريمة مبين من القرآن غير واف بالمقصود من تمام البيان فإنا نتمم البيان من السنة من حيث إنها تفسير للمبين باسم الفاعل ، ومثاله قوله تعالى : ﴿ إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا ﴾ ، فقد أشار تعالى إلى أوقاتها فى قوله : ﴿ أقم الصلاة لدلوك الشمس ﴾ الآية — وقوله : ﴿ وأقم الصلاة طرفى النهار ﴾ الآية — وقوله : ﴿ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ﴾ الآية — على ما ذكره جمع من العلماء من أنها فى أوقات الصلاة وكقوله تعالى : ﴿ وآتوا حقه يوم حصاده ﴾ على القول بأنها فى الزكاة وأنها غير منسوخة ، فإنها تشير لها آيات الزكاة كقوله ﴿ وآتوا الزكاة ﴾ ، وقوله : ﴿ ومما أخرجنا لكم من الأرض ﴾ وكقوله : ﴿ قل لا أجد فيما أوحى إلى محرما على طاعم يطعمه ﴾ الآية — فإن القرآن زيد فيه على هذا الحصر تحريم الخمر فنبين ما زاده صلى الله عليه وسلم بالسنة الصحيحة ، فمثل هذه المسائل نبينها بيانا تاما بالسنة تبعاً للبيان القرآنى .

واعلم أن الغالب فى الأمثلة التى ذكرناها كلها تعددها فى القرآن بكثرة ومنها ما يتعدد من غير كثرة وربما ذكرنا فرداً من أفراد البيان لا نظير له كإشارته تعالى إلى أقل أمد الحمل بقوله : ﴿ وحمله وفصاله ثلاثون شهراً ﴾ مع قوله : ﴿ وفصاله فى عامين ﴾ فلم يبق للحمل من الثلاثين شهراً بعد عامى الفصال إلا ستة أشهر ، فدل ذلك على أنها أمد للحمل يوضع فيه تاماً .

واعلم أن أقسام البيان فى هذا الكتاب المبارك بالنسبة إلى المنطوق والمفهوم أربعة ؛ لأن كلا من المبين باسم المفعول والمبين باسم الفاعل قد يكون منطوقاً ، وقد يكون مفهوماً ، فالمجموع أربع من ضرب حالتى المنطوق فى حالتى المفهوم .

الأولى : بيان منطوق بمنطوق كبيان قوله تعالى : ﴿ إلا ما يتلى عليكم ﴾ بقوله : ﴿ حرمت عليكم الميتة ﴾ الآية .

الثانية : بيان مفهوم بمنطوق كبيان مفهوم قوله : ﴿ هدى للمتقين ﴾ بمنطوق قوله تعالى : ﴿ والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى ﴾ وقوله : ﴿ ولا يزيد الظالمين إلا خسارا ﴾ .

الثالثة : بيان منطوق بمفهوم كبيان قوله تعالى : ﴿ حرمت عليكم الميتة والدم ﴾ الآية — بمفهوم آية الأنعام ، فإن تحريم الدم مطلقاً منطوق هنا وقوله تعالى فى الأنعام : ﴿ أو دماً مسفوحاً ﴾ يدل بمفهوم مخالفته على أن غير المسفوح ليس كذلك فيبين هذا المفهوم أن المراد بالدم فى الآية الأولى غير المسفوح ، ومن أمثلته بيان قوله : ﴿ والزانى ﴾ بمفهوم الموافقة فى قوله : ﴿ فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ﴾ فإنه يفهم من مفهوم موافقته أن العبد الذكر كالأمة فى ذلك يجلد خمسين ، فبين هذا المفهوم أن المراد بالزانى خصوص الحر .

واعلم أن مثل هذا من مفهوم الموافقة يسميه الشافعى وبعض الأصوليين قياساً ، وهو المعروف عندهم بالقياس فى معنى الأصل ، ويسمى مفهوم الموافقة ، وإلغاء الفارق ، وتنقيح المناط ، وأكثر أهل الأصول على أنه مفهوم وليس بقياس ، كما سترى تحقيقه فى مواضع من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى ، ومن أمثلة بيان المنطوق بالمفهوم قوله فى الخمر : ﴿ رجس من عمل الشيطان ﴾ فإنه يدل على أنها نجسة العين ؛ لأن الرجس هو المستقذر الخبيث ويدل له مفهوم قوله فى شراب الآخرة : ﴿ وسقاهم ربهم شراباً طهوراً ﴾ ؛ فإن مفهومه

أن خمر أهل الدنيا ليست كذلك. كما قاله الفراء وغير واحد، وسترى إيضاحه في المائدة إن شاء الله تعالى.

الرابعة: بيان مفهوم بمفهوم ومثاله قوله تعالى: ﴿والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب﴾ على القول بأن المراد بالمحصنات الحرائر، كما روى عن مجاهد فإنه يدل بمفهومه على أن الأمة الكتابية لا يجوز نكاحها؛ ويدل لهذا أيضاً مفهوم قوله تعالى: ﴿ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات﴾ فمفهوم قوله المؤمنات يدل على منع تزويج الإماء الكافرات ولو عند الضرورة، وهو بيان مفهوم بمفهوم كما ترى.

واعلم — وفقني الله وإياك لما يحبه ويرضاه — أن هذا الكتاب المبارك تضمن أنواعاً كثيرة جداً من بيان القرآن بالقرآن غير ما ذكرنا تركنا ذكر غير هذا منها خوف إطالة الترجمة، والمقصود بما ذكرنا من الأمثلة مطلق بيان كثرة الأنواع التي تضمنها واختلاف جهاتها — وفي البعض تنبيه لطيف على الكل — والغرض أن يكون الناظر في الترجمة على بصيرة مما يتضمنه الكتاب في الجملة قبل الوقوف على جميع ما فيه.

مقدمة فى تعريف الإجمالى والبيان

فى إصطلاح أهل الأصول

اعلم أولا أن المجمل فى اللغة : هو المجموع ، وجملة الشيء مجموعه ، وأما فى الاصطلاح فقد اختلفت فيه عبارات أهل الأصول والتحقيق : أنه هو ما احتمل معنيين أو أكثر من غير ترجح لواحد منهما أو منها على غيره وعرفه فى مراقى السعود بقوله :

وذو وضوح محكم والمجمل هو الذى المراد منه يجهل

واعلم أن المبهم أعم من المجمل عموماً مطلقاً ، فكل مجمل مبهم ، وليس كل مبهم مجملا . فمثل قولك لعبدك : تصدق بهذا الدرهم على رجل ، فيه إبهام وليس بمجملا ، لأن معناه لا إشكال فيه ، لأن كل رجل تصدق عليه به حصل به المقصود ، والدليل على أن المجمل هو ما ذكرنا أن اللفظ لا يخلو من أحد أمرين :

إما أن يدل على معنى واحد لايحتمل غيره فهو النص نحو : ﴿ تلك عشرة كاملة ﴾ . وإما أن يحتمل غيره ، وهذا له حالتان :

الأولى : أن يكون أحد المحتملين أظهر .

والثانية : أن يتساويا بأن لا يكون أحدهما أظهر من الآخر ، فإن كان أحد المعنيين أظهر فهو الظاهر ومقابله محتمل ، وإن استويا فهو المجمل كما ذكرناه ، وحكم النص أنه لايعدل عنه إلا بنسخ ، وحكم الظاهر أنه لا يعدل عنه إلا بدليل أقوى منه يدل على صرف اللفظ عن ظاهره المتبادر منه إلى المحتمل المرجوح ، وحكم المجمل أن يتوقف فيه حتى يدل دليل مبين للمقصود من المحتمل ، وصرف اللفظ عن ظاهره المتبادر منه إلى المحتمل المرجوح هو

المعروف فى اصطلاح أهل الأصول بالتأويل ، وسيأتى إيضاح أنواع التأويل كلها إن شاء الله تعالى فى آل عمران .

واعلم أن اللفظ قد يكون واضح الدلالة من وجه مجملا من وجه آخر كقوله تعالى : ﴿ وآتوا حقه يوم حصاده ﴾ فإنه واضح فى إيتاء الحق ، مجمل فى مقداره ؛ لاحتماله النصف أو أقل أو أكثر ، وإلى هذا أشار فى مراقى السعود بقوله :

وقد يجىء الإجمال من وجه ومن وجه يراه ذا بيان من فطن

وأما البيان فهو لغة : اسم مصدر بمعنى التبيين ، وهو الإيضاح والإظهار كالسلام بمعنى التسليم ، والكلام بمعنى التكليم ، والطلاق بمعنى التطليق ، وقد يطلق على المبين بالكسر والفتح ، ومن أهل الأصول من يطلق البيان على كل إيضاح سواء تقدمه خفاء أم لا ، وكثير من الأصوليين لا يطلقون البيان باصطلاح الأصولى إلا على إظهار ما كان فيه خفاء وعليه درج فى مراقى السعود بقوله معرفاً للبيان فى الاصطلاح :

تصيير مشكل من الجلى وهو واجب على النبى
إذا أريد فهمه وهو بما من الدليل مطلقاً يجلو العمى

فكل ما يزيل الإشكال يسمى بياناً فى الاصطلاح بمعنى المبين بالكسر ، وسترى إن شاء الله فى هذا الكتاب المبارك من أنواع البيان وأنواع ما به البيان ما فيه كفاية .

واعلم أن التحقيق جواز بيان المتواتر من كتاب أو سنة بأخبار الآحاد ، وكذلك يجوز بيان المنطوق بالمفهوم كما قدمنا خلافاً لقوم منعوا ذلك زاعمين أن المنطوق أظهر من المفهوم والأظهر لا يبين بالأخفى ، وحكاه الباجى عن أكثر المالكية وأجيب بأنه ما كل منطوق يقدم على المفهوم بل بعض المفاهيم أقوى دلالة على الأمر من دلالة المنطوق عليه ـ ألا ترى أن دلالة مفهوم حديث « فى الغنم السائمة زكاة » عند من لا يرى الزكاة فى المعلوفة أظهر فى عدم الزكاة فى المعلوفة ، من دخولها فى عموم منطوق حديث

« فى أربعين شاة شاة » ، لأن المفهوم أخص بها وأقوى فيها دلالة من عموم المنطوق ، وإلى هذا أشار فى مراقى السعود بقوله :

وبين القاصر من حيث السند أو الدلالة على ما يعتمد

فالبيان بالقاصر سنداً كبيان المتواتر بالآحاد ، والبيان بالقاصر دلالة كبيان المنطوق بالمفهوم كما قدمنا ، والمراد بقصوره فى الدلالة أغلبية ذلك لا لزومه فى كل حال كما أشرنا إليه آنفا ، وحكى القاضى الباقلانى عن جماعة من العراقيين أن المبين بالفتح إن كان وجوبه يعم جميع المكلفين كالصلاة فلا يبين إلا بمتواتر ، وإليه أشار فى مراقى السعود بقوله :

وأوجبن عند بعض علما إذا وجوب ذى الخفاء عما

ولا يخفى سقوط هذا القول وأنه لا وجه لرد حديث صحيح دال على بيان نص من غير معارض بدعوى أنه لم يتواتر ومنع بيان المتواتر مطلقاً بالآحاد أشد سقوطاً .

واعلم أن الأصوليين اختلفوا فى البيان بالقول هل هو أقوى من البيان بالفعل أولا ؟ قال مقيده عفا الله عنه : الظاهر أن التحقيق فى ذلك هو ما حققه أبو إسحاق الشاطبي ـ رحمه الله ـ وهو أن كل واحد منهما أقوى من صاحبه من جهة ، فالفعل يبلغ من بيان الكيفيات المعينة المخصوصة مالا يبلغه القول والقول يبلغ من بيان الخصوص والعموم فى الأحوال والأشخاص مالا يبلغه الفعل .

مسائل تتعلق بالبيان

المسألة الأولى : إذا ورد بعد المجمل قول وفعل ، فلا يخلو الأمر من واحدة من ثلاث حالات :

الأولى : أن يتفق القول والفعل .

الثانية : أن يزيد الفعل على القول .

الثالثة : أن يزيد القول على الفعل فإن اتفق القول والفعل معاً ، فالمتقدم منهما هو المبين والثانى تأكيد له كما قالوا بعد نزول آية القطع فى السرقة :

مكتبة المحتسب ... المدينة المنورة ١٤٣٠هـ

القطع من الكوع ، وقطع بالفعل من الكوع وإن جهل المتقدم فالبيان بأحدهما لا بعينه ، وقال الآمدى : يتعين المرجوح إن كان أحدهما أرجح ، لأن المرجوح لا يكون مؤكداً للراجح . قال القرافى وهو غير متجه لأن الأضعف يزيد فى رتبة الظن الحاصلة قبله كزيادة شاهد على أربعة وإن زاد الفعل على القول ، كبيانه صلى الله عليه وسلم أن كيفية الصوم هى صوم كل يوم بانفراده من غيره وصال بين يومين ، مع أنه صلى الله عليه وسلم ربما واصل ، فإن البيان يكون بالقول والفعل يدل على مطلق الطلب فى حقه صلى الله عليه وسلم خاصة بندب أو إيجاب تقدم للقول أو تأخر ، وقال أبو الحسين البصرى : المتقدم منهما هو البيان وألزم نسخ الفعل المتقدم مع إمكان الجمع ، قال المحلى : ولو نقض الفعل عن مقتضى القول كما لو طاف بعد نزول آية الحج طوافا واحداً وأمر باثنين فقياس الأول أن القول هو البيان ونقص الفعل تخفيف عنه صلى الله عليه وسلم ، تأخر الفعل أو تقدم ، وقياس ما لأبى الحسين أن البيان هو المتقدم ، وإلى هذه المسألة أشار فى مراقى السعود بقوله :

والقول والفعل إذا توافقا ... فانما البيان للذى قد سبقا
وإن يزد فعل فللقول انتسب ... والفعل يقضى بلا قيد طلب
والقول فى العكس هو المبين ... وفعله التخفيف فيه بين

المسألة الثانية : اعلم أنه لا يجوز تأخير البيان لمجمل أو ظاهر لم يرد ظاهره عن وقت الحاجة إلى العمل به ، وقال القوم : يجوز عقلا لكنه لم يقع بالفعل ، وأجراه كثير منهم على الخلاف فى مسألة التكليف بما لا يطاق ، وإلى هذه المسألة أشار فى مراقى السعود بقوله :

تأخر البيان عن وقت العمل ... وقوعه عند المجيز ما حصل

وذكر بعض المتأخرين عن ابن العربى المالكى أنه قال فى كتابه المحصول . لحظت ذلك مدة ثم ظهر لى جوازه ، ولا يكون من تكليف ما لا يطاق بل رفعا للحكم وإسقاطاً له فى حق المكلف ، قال مقيده عفا الله عنه : وبناء على أن البيان لا يجوز تأخيره عن وقت الفعل صرحوا بأن التخصيص بعد

العمل بالعام نسخ فى البعض ، وكذلك التقييد بعد العمل بالمطلق ، لأن كلا من التخصيص والتقييد بيان وهو لا يتأخر عن وقت الفعل ، فإذا تأخر تعين النسخ ، وإليه أشار فى المراقى فى التخطيط بقوله :

وإن أتى ماخص بعد العمل نسخ والغير مخصصا جلى

وفى التقييد بقوله :

وإن يكن تأخر المقيد عن عمل فالنسخ فيه يعهد

تنبيه : فإن قيل قد وقع تأخير البيان عن وقت الحاجة كما وقع فى صبح ليلة الإسراء ، فإن جبريل عليه السلام لم يبين للنبى صلى الله عليه وسلم كيفيتها ولا وقتها حتى ضاعت ، فالجواب من وجهين أشار لهما العبادى فى الآيات البينات .

أحدهما : أن وجوبها كان مشروطاً بالبيان قبل فوات وقتها ولم يبين له صلى الله عليه وسلم ، ولذا لم يفعلها أداء ولا قضاء . قال : ومن هنا يعلم أن الكلام فى غير الوجوب المعلق على البيان ، أما هو فلا يتصور فيه تأخير البيان عن وقت الفعل .

الثانى : أن الصلوات الخمس فرضت ليلة الإسراء على أن أبتداء الوجوب من ظهر ذلك اليوم فما بعده دون ماقبله .

المسألة الثالثة : أما تأخير البيان إلى وقت الحاجة إلى العمل به فالتحقيق أنه جائز وواقع وهو مذهب الجمهور ومقابلة ثلاثة أقوال أخر :

الأول : أنه لا يجوز مطلقاً .

الثانى : أنه يجوز فى المجمل دون ماله ظاهر غير مراد ، كالعام والمطلق .

الثالث : عكس هذا وهو جوازه فيما له ظاهر غير مراد دون المجمل وهو أبعدها ، وإلى هذه الأقوال أشار فى المراقى بقوله :

تأخيره للاحتياط واقع وبعضنا هو لذاك مانع
وقيل بالمنع بما كالمطلق ثم بعكسه لدى البعض انطق

أما تأخير أصل التبليغ إلى وقت الحاجة ، فقال بعض العلماء بجوازه

أيضاً ، وخالف فيه بعضهم ، وقال الفخر الرازى وابن الحاجب والآمدى لايجوز تأخير تبليغ القرآن قولا واحداً لأنه متعبد بتلاوته ، ولم يؤخر صلى الله عليه وسلم تبليغه بخلاف غيره ، قال بعض أهل الأصول : قد يمنع تعجيل التبليغ ويجب تأخيره إلى وقت الحاجة إن كان يخشى من تعجيله مفسدة ، قالوا : فلو أمر صلى الله عليه وسلم بقتال أهل مكة بعد سنة من الهجرة ، وجب تأخير تبليغ ذلك للناس ، لئلا يستعد العدو إذا علم ويعظم الفساد ، ولذلك لما أراد عليه الصلاة والسلام قتالهم قطع الأخبار عنهم حتى دهمهم ، وكان ذلك أيسر لغلبتهم وقهرهم ، وإلى هذا أشار فى المراقى بقوله:

وجائز عدم تبليـــغ له ودره مايخشى أبى تعجيله

والضمير فى قوله : له عائد إلى الاحتياج فى البيت المذكور قبله أى جائز تأخير التبليغ إلى وقت الاحتياج له .

المسألة الرابعة : لا يشترط فى البيان أن يعلمه جميع المكلفين الموجودين فى وقته ، بل يجوز أن يكون بعضهم جاهلا به ودليله الوقوع ، فقد جاءت فاطمة الزهراء والعباس ـ رضى الله عنهما ـ أبا بكر ـ رضى الله عنه ـ يطلبان ميراثهما من النبى صلى الله عليه وسلم متمسكين بعموم ﴿ يوصيكم الله فى أولادكم ﴾ الآية ـ وعموم ﴿ ولكل جعلنا موالى مماترك الوالدان والأقربون ﴾ ولم يعلما أنه صلى الله عليه وسلم بين أن هذا العموم لا يتناول الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه بقوله : [إنا معاشر الأنبياء لانورث] الحديث ـ وإلى هذه المسألة أشار فى المراقى بقوله :

ونسبة الجهل لذى وجود بما يخصص من الموجود

وسميته : أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن ، وهذا أوان الشروع فى المقصود .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الفاتحة

قوله تعالى ﴿ الحمد لله ﴾ لم يذكر لحمده هنا ظرفاً مكانياً ولا زمانياً . وذكر في سورة الروم أن من ظروفه المكانية :السماوات والأرض في قوله ﴿ وله الحمد في السموات والأرض ﴾ الآية ـ وذكر في سورة القصص أن من ظروفه الزمانية : الدنيا والآخرة في قوله : ﴿ وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة ﴾ الآية ـ وقال في أول سورة سبأ ﴿ وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير ﴾ والألف واللام في « الحمد » لاستغراق جميع المحامد وهو ثناء أثنى به تعالى على نفسه وفي ضمنه أمر عباده أن يثنوا عليه به .

وقوله تعالى : ﴿رب العالمين﴾ لم يبين هنا ما العالمون ، وبين ذلك في موضع آخر بقوله : ﴿ قال فرعون وما رب العالمين ؟ قال رب السموات والأرض وما بينهما ﴾ الآية . قال بعض العلماء : اشتقاق العالم من العلامة ، لأن وجود العالم علامة لا شك فيها على وجود خالقه متصفا بصفات الكمال والجلال . قال تعالى : ﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ﴾ والآية في اللغة : العلامة .

قوله تعالى : ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ هما وصفان لله تعالى ، واسمان من أسمائه الحسنى ، مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة ، والرحمن أشد مبالغة من الرحيم ، لأن الرحمن هو ذو الرحمة الشاملة لجميع الخلائق في الدنيا ، والمؤمنين في الآخرة ، والرحيم ذو الرحمة للمؤمنين يوم القيامة . وعلى هذا أكثر العلماء . وفي كلام ابن جرير ما يفهم منه حكاية الاتفاق على هذا . وفي تفسير بعض السلف ما يدل عليه ، كما قاله ابن كثير ، ويدل له الأثر المروي عن عيسى كما ذكره ابن كثير وغيره أنه قال عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام « الرحمن » رحمن الدنيا والآخرة و « الرحيم » رحيم الآخرة . وقد أشار تعالى إلى هذا الذي ذكرنا حيث قال : ﴿ ثم استوى على العرش الرحمن ﴾ وقال ﴿ الرحمن على العرش

استوى﴾ فذكر الاستواء باسمه الرحمن ليعم جميع خلقه برحمته . قال ابن كثير ، ومثله قوله تعالى ﴿أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن مايمسكهن إلا الرحمن﴾ أى : ومن رحمانيته : لطفه بالطير ، وإمساكه إياها صافات وقابضات فى جو السماء . ومن أظهر الأدلة فى ذلك قوله تعالى : ﴿الرحمن علم القرآن - إلى قوله - فبأى آلاء ربكما تكذبان﴾ وقال : ﴿وكان بالمؤمنين رحيما﴾ فخصهم باسمه الرحيم - فإن قيل : كيف يمكن الجمع بين ماقررتم ، وبين ماجاء فى الدعاء المأثور من قوله صلى الله عليه وسلم [رحمان الدنيا والآخرة ورحيمهما ؟] فالظاهر فى الجواب - والله أعلم - أن الرحيم خاص بالمؤمنين كما ذكرنا ، لكنه لايختص بهم فى الآخرة ! بل يشمل رحمتهم فى الدنيا أيضا ، فيكون معنى رحيمهما رحمته بالمؤمنين فيهما .

والدليل على أنه رحيم بالمؤمنين فى الدنيا أيضاً : أن ذلك هو ظاهر قوله تعالى : ﴿هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيما﴾ ، لأن صلاته عليهم وصلاة ملائكته وإخراجه إياهم من الظلمات إلى النور رحمة بهم فى الدنيا . وإن كانت سبب الرحمة فى الآخرة أيضاً ، وكذلك قوله تعالى : ﴿لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ، ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم﴾ ، فإنه جاء فيه بالباء المتعلقة بالرحيم الجار للضمير الواقع على النبى صلى الله عليه وسلم والمهاجرين والأنصار ، وتوبته عليهم رحمة فى الدنيا وإن كانت سبب رحمة الآخرة أيضاً . والعلم عند الله تعالى .

وقوله : ﴿مالك يوم الدين﴾ لم يبينه هنا . وبينه فى قوله : ﴿وما أدراك مايوم الدين . ثم ماأدراك ما يوم الدين . يوم لاتملك نفس لنفس شيئا﴾ الآية . والمراد بالدين فى الآية : الجزاء . ومنه قوله تعالى ﴿يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق﴾ أى جزاء أعمالهم بالعدل .

قوله تعالى : ﴿إياك نعبد﴾ أشار فى هذه الآية الكريمة إلى تحقيق معنى لا إله إلا الله ، لأن معناها مركب من أمرين : نفى وإثبات . فالنفى : خلع جميع المعبودات غير الله تعالى فى جميع أنواع العبادات ، والإثبات : إفراد رب السموات والأرض وحده بجميع أنواع العبادات على الوجه المشروع

وقد أشار إلى النفي من لا إله إلا الله بتقديم المعمول الذى هو « إياك » وقد تقرر فى الأصول ، فى مبحث دليل الخطاب الذى هو مفهوم المخالفة . وفى المعانى فى مبحث القصر : أن تقديم المعمول من صيغ الحصر . وأشار إلى الإثبات منها بقوله « نعبد » . وقد بين معناها المشار إليه هنا مفصلا فى آيات أخر كقوله ﴿ ياأيها الناس اعبدوا ربكم ﴾ وصرح بالنفي منها فى آخر الآية الكريمة بقوله : ﴿فلاتجعلوا له أنداداً وأنتم تعلمون ﴾ وكقوله ﴿ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾ فصرح بالإثبات بقوله ﴿أن اعبدوا الله ﴾ بالنفي وبقوله : ﴿ واجتنبوا الطاغوت ﴾ وكقوله ﴿ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله . فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴾ فصرح بالنفي منها بقوله : ﴿ فمن يكفر بالطاغوت ﴾ وبالإثبات بقوله : ﴿ ويؤمن بالله ﴾ وكقوله : ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه : إننى براء مما تعبدون إلا الذى فطرنى ﴾ الآية ـ وكقوله : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه : أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ وقوله ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ؟ ﴾ إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى : ﴿ وإياك نستعين ﴾ أى لا نطلب العون إلا منك وحدك ؛ لأن الأمر كله بيدك وحدك لايملك أحد منه معك مثقال ذرة : وإتيانه بقوله «وإياك نستعين» بعد قوله «إياك نعبد» فيه إشارة إلى أنه لاينبغى أن يتوكل إلا على من يستحق العبادة ؛ لأن غيره ليس بيده الأمر . وهذا المعنى المشار إليه هنا جاء مبينا واضحا فى آيات أخر كقوله ﴿ فاعبده وتوكل عليه ﴾ الآية ـ وقوله ﴿ فإن تولوا فقل : حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت ﴾ الآية ـ وقوله ﴿ رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو ، فاتخذه وكيلا ﴾ وقوله ﴿ قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا ﴾ إلى غير ذلك من الآيات .

وقوله تعالى ﴿ صراط الذين أنعمت عليهم ﴾ لم يبين هنا من هؤلاء الذين أنعم عليهم . وبين ذلك فى موضع آخر بقوله ﴿ فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ﴾ .

تنبيهان

الأول : يؤخذ من هذه الآية الكريمة صحة إمامة أبي بكر الصديق رضي الله عنه ؛ لأنه داخل فيمن أمرنا الله في السبع المثاني والقرآن العظيم - أعني الفاتحة - بأن نسأله أن يهدينا صراطهم . فدل ذلك على أن صراطهم هو الصراط المستقيم .

وذلك في قوله ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم ﴾ وقد بين الذين أنعم عليهم فعد منهم الصديقين . وقد بين صلى الله عليه وسلم أن أبا بكر رضي الله عنه من الصديقين ، فاتضح أنه داخل في الذين أنعم الله عليهم . الذين أمرنا الله أن نسأله الهداية إلى صراطهم فلم يبق لبس في أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه على الصراط المستقيم ، وأن إمامته حق .

الثاني : قد علمت أن الصديقين من الذين أنعم الله عليهم . وقد صرح تعالى بأن مريم ابنة عمران صديقة في قوله ﴿ وأمه صديقة ﴾ الآية - وإذن فهل تدخل مريم في قوله تعالى ﴿ صراط الذين أنعمت عليهم ﴾ أولا ؟

الجواب : أن دخولها فيهم يتفرع على قاعدة أصولية مختلف فيها معروفة ، وهي : هل ما في القرآن العظيم والسنة من الجموع الصحيحة المذكرة ونحوها مما يختص بجماعة الذكور تدخل فيه الإناث أولا يدخلن فيه إلا بدليل منفصل ؟ فذهب قوم إلى أنهن يدخلن في ذلك . وعليه : فمريم داخلة في الآية واحتج أهل هذا القول بأمرين :

الأول : إجماع أهل اللسان العربي على تغليب الذكور على الإناث في الجمع .

والثاني : ورود آيات تدل على دخولهن في الجموع الصحيحة المذكرة ونحوها ، كقوله تعالى في مريم نفسها ﴿ وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين ﴾ وقوله في امرأة العزيز : ﴿ يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين ﴾ وقوله في بلقيس ﴿ وصدها ما كانت تعبد من دون الله ، إنها كانت من قوم كافرين ﴾ وقوله فيما كالجمع المذكر السالم : ﴿ قلنا اهبطوا منها جميعا ﴾ الآية - فإنه تدخل فيه حواء إجماعا . وذهب كثير إلى أنهن لا يدخلن في ذلك إلا بدليل منفصل . واستدلوا على ذلك بآيات كقوله ﴿ إن المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات — إلى قوله — أعد

الله لهم مغفرة وأجراً عظيما ﴾ وقوله تعالى : ﴿ للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم ﴾ ثم قال ﴿ وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ﴾ الآية ـ فعطفهن عليهم يدل على عدم دخولهن . وأجابوا عن حجة أهل القول الأول بأن تغليب الذكور على الإناث فى الجمع ليس محل نزاع . وإنما النزاع فى الذى يتبادر من الجمع المذكر ونحوه عند الإطلاق . وعن الآيات بأن دخول الإناث فيها . إنما علم من قرينة السياق ودلالة اللفظ ، ودخولهن فى حالة الاقتران بما يدل على ذلك لانزاع فيه . وعلى هذا القول : فمريم غير داخلة فى الآية وإلى هذا الخلاف أشار فى مراقى السعود بقوله :

وما شمول من للأنثى جنف وفى شبيه المسلمين اختلفوا

وقوله : ﴿ غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ قال جماهير من علماء التفسير « المغضوب عليهم » اليهود « الضالون » النصارى . وقد جاء الخبر بذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديث عدى بن حاتم رضى الله عنه . واليهود والنصارى وإن كانوا ضالين جميعاً مغضوبا عليهم جميعا ، فإن الغضب إنما خص به اليهود ، وإن شاركهم النصارى فيه ، لأنهم يعرفون الحق وينكرونه ويأتون الباطل عمداً ، فكان الغضب أخص صفاتهم . والنصارى جهلة لايعرفون الحق ، فكان الضلال أخص صفاتهم .

وعلى هذا فقد يبين أن « المغضوب عليهم » اليهود . قوله تعالى فيهم ﴿ فباءوا بغضب على غضب ﴾ الآية ـ وقوله فيهم أيضا : ﴿ هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه ﴾ الآية ـ وقوله : ﴿ إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب ﴾ الآية ـ .

وقد يبين أن الضالين النصارى ، قوله تعالى : ﴿ ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل ، وأضلوا كثيرا ، وضلوا عن سواء السبيل ﴾ .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة البقرة

قوله تعالى ﴿ هدى للمتقين ﴾ صرح فى هذه الآية بأن هذا القرآن هدى للمتقين ، ويفهم من مفهوم الآية ـ أعنى مفهوم المخالفة المعروف بدليل الخطاب ـ أن غير المتقين ليس هذا القرآن هدى لهم ، وصرح بهذا المفهوم فى آيات أخر كقوله : ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى ﴾ وقوله : ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا ﴾ وقوله ﴿ وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول : أيكم زادته هذه إيمانا ؟ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون . وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا ﴾ الآيتين . ومعلوم أن المراد بالهدى فى هذه الآية الهدى الخاص الذى هو التفضيل بالتوفيق إلى دين الحق ، لا الهدى العام ، الذى هو إيضاح الحق .

قوله تعالى : ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ عبر فى هذه الآية الكريمة بمن التبعيضية الدالة على أنه ينفق لوجه الله بعض ماله لا كله . ولم يبين هنا القدر الذى ينبغى إنفاقه ، والذى ينبغى إمساكه . ولكنه بين فى مواضع أخر أن القدر الذى ينبغى إنفاقه : هو الزائد على الحاجة وسد الخلة التى لابد منها ، وذلك كقوله : ﴿ ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو ﴾ ، والمراد بالعفو الزائد على قدر الحاجة التى لابد منها على أصح التفسيرات ، وهو مذهب الجمهور .

ومنه قوله تعالى : ﴿ حتى عفوا ﴾ أى كثروا وكثرت أموالهم وأولادهم . وقال بعض العلماء : العفو : نقيض الجهد ، وهو أن ينفق مالا يبلغ إنفاقه منه الجهد واستفراغ الوسع . ومنه قول الشاعر :

خذى العفو منى تستديمى مودتى ولا تنطقى سورتى حين أغضب

وهذا القول راجع إلى ماذكرنا ، وبقية الأقوال ضعيفة .

وقوله تعالى : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط ﴾ فنهاه عن البخل بقوله : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ﴾ ، نهاه عن الإسراف بقوله : ﴿ ولا تبسطها كل البسط ﴾ فيتعين الوسط بين الأمرين . كما بينه بقوله : ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ﴾ فيجب على المنفق أن يفرق بين الجلود والتبذير ، وبين البخل والاقتصاد . فالجود : غير التبذير ، والاقتصاد : غير البخل . فالمنع فى محل الإعطاء مذموم ، وقد نهى الله عنه نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ﴾ والإعطاء فى محل المنع مذموم أيضا . وقد نهى الله عنه نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله : ﴿ ولا تبسطها كل البسط ﴾ وقد قال الشاعر :

لاتمدحن ابن عباد وإن هطلت يداه كالمزن حتى تخجل الديما
فإنها فلتات من وساوسه يعطى ويمنع لا بخلا ولا كرما

وقد بين تعالى فى مواضع أخر : أن الإنفاق المحمود لا يكون كذلك ، إلا إذا كان مصرفه الذى صرف فيه مما يرضى الله . كقوله تعالى : ﴿ قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين ﴾ الآية — وصرح بان الإنفاق فيما لا يرضى الله حسرة على صاحبه فى قوله : ﴿ فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ﴾ الآية — وقد قال الشاعر :

إن الصنيعة لاتعد صنيعة حتى يصاب بها طريق المصنع

فإن قيل : هذا الذى قررتم يقتضى أن الإنفاق المحمود هو إنفاق مازاد على الحاجة الضرورية ، مع أن الله تعالى أثنى على قوم بالإنفاق وهم فى حاجة إلى ما أنفقوا ، وذلك فى قوله : ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ .

فالظاهر فى الجواب — والله تعالى أعلم — هو ماذكره بعض العلماء من أن لكل مقام مقالا ، ففى بعض الأحوال يكون الإيثار ممنوعا . وذلك كما

إذا كانت على المنفق نفقات واجبة . كنفقة الزوجات ونحوها فتبرع بالإنفاق فى غير واجب وترك الفرض لقوله صلى الله عليه وسلم [وابدأ بمن تعول] ، وكأن يكون لا صبر عنده عن سؤال الناس فينفق ماله ويرجع إلى الناس يسألهم مالهم ، فلا يجوز له ذلك ، والإيثار فيما إذا كان لم يضيع نفقة واجبة ، وكان واثقاً من نفسه بالصبر والتعفف وعدم السؤال . وأما على القول بأن قوله تعالى : ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ يعنى به الزكاة . فالأمر واضح ، والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ﴾ الآية ـ لايخفى أن الواو فى قوله : ﴿ وعلى سمعهم وعلى أبصارهم ﴾ محتملة فى الحرفين أن تكون عاطفة على ما قبلها ، وأن تكون استئنافية . ولم يبين ذلك هنا ، ولكن بين فى موضع آخر أن قوله « وعلى سمعهم » معطوف على قوله « على قلوبهم » وأن قوله « وعلى أبصارهم » استئناف والجار والمجرور خبر المبتدأ الذى هو « غشاوة » وسوغ الابتداء بالنكرة فيه اعتمادها على الجار والمجرور قبلها . ولذلك يجب تقديم هذا الخبر ، لأنه هو الذى سوغ الابتداء بالمبتدأ كما عقده فى الخلاصة بقوله :

ونحو عندى ولى وطر ملتزم فيه تقـــدم الخبر

فتحصل أن الختم على القلوب والأسماع ، وأن الغشاوة على الأبصار . وذلك فى قوله تعالى : ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ، وأضله الله على علم ، وختم على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة ﴾ والختم : والاستيثاق من الشىء حتى لا يخرج منه داخل فيه ولا يدخل فيه خارج عنه ، والغشاوة : الغطاء على العين يمنعها من الرؤية . ومنه قول الحارث بن خالد بن العاص :

هويتك إذ عينى عليها غشاوة فلما انجلت قطعت نفسى ألومها

وعلى قراءة من نصب غشاوة فهى منصوبة بفعل محذوف أى ﴿ وجعل على أبصارهم غشاوة ﴾ كما فى سورة الجاثية ، وهو كقوله :

علفتها تبناً وماءً بارداً حتى شتت همالة عيناها

وقول الآخر :

ورأيت زوجك فى الوغى متقلداً سيفا ورمحا

وقول الآخر :

إذا ما الغانيات برزن يوما وزججن الحواجب والعيونا

كما هو معروف فى النحو . وأجاز بعضهم كونه معطوفا على محل المجرور ، فإن قيل : قد يكون الطبع على الأبصار أيضاً كما فى قوله تعالى فى سورة النحل : ﴿ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم ﴾ الآية .

فالجواب : أن الطبع على الأبصار المذكور فى آية النحل : هو الغشاوة المذكورة فى سورة البقرة والجاثية ، والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ﴾ لم يذكر هنا بيانا عن هؤلاء المنافقين ، وصرح بذكر بعضهم بقوله : ﴿ وممن حولكم من الأعراب منافقون ، ومن أهل المدينة مردوا على النفاق ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ الله يستهزىء بهم ﴾ لم يبين هنا شيئاً من استهزائه بهم . وذكر بعضه فى سورة الحديد فى قوله : ﴿ قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ صم بكم عمى ﴾ الآية — ظاهر هذه الآية أن المنافقين متصفون بالصمم ، والبكم ، والعمى . ولكنه تعالى بين فى موضع آخر أن معنى صممهم ، وبكمهم ، وعماهم ، هو عدم انتفاعهم بأسماعهم ، وقلوبهم ، وأبصارهم ، وذلك فى قوله جل وعلا : ﴿ وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء ، إذ كانوا يجحدون بآيات الله ، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ أو كصيب من السماء ﴾ الآية — الصيب : المطر ، وقد ضرب الله فى هذه الآية مثلا لما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من الهدى والعلم بالمطر ، لأن بالعلم والهدى حياة الأرواح ، كما أن بالمطر حياة الأجسام . وأشار إلى وجه ضرب هذا المثل بقوله جل وعلا : ﴿ والبلد الطيب يخرج

نباته بإذن ربه والذى خبث لا يخرج إلا نكدا ﴾ .

وقد أوضح صلى الله عليه وسلم هذا المثل المشار إليه فى الآيتين فى حديث أبى موسى المتفق عليه ، حيث قال صلى الله عليه وسلم : « إن مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم ، كمثل غيث أصاب أرضاً . فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها ، وسقوا وزرعوا ، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ . فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه الله بما بعثنى به ، فعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ، ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به » .

وقوله تعالى : ﴿ فيه ظلمات ﴾ ضرب الله تعالى فى هذه الآية المثل لما يعترى الكفار والمنافقين من الشبه والشكوك فى القرآن ، بظلمات المطر المضروب مثلا للقرآن ، ويبين بعض المواضع التى هى كالظلمة عليهم ، لأنها تزيدهم عمى فى آيات أخر لقوله : ﴿ وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه ، وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله ﴾ ، لأن نسخ القبلة يظن بسببه ضعاف اليقين أن النبى صلى الله عليه وسلم ، ليس على يقين من أمره حيث يستقبل يوماً جهة ، ويوما آخر جهة أخرى ، كما قال تعالى : ﴿ سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها ﴾ . وصرح تعالى بأن نسخ القبلة كبير على غير من هداه الله وقوى يقينه ، بقوله : ﴿ وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله ﴾ وكقوله تعالى : ﴿وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس ، والشجرة الملعونة فى القرآن ﴾ لأن مارآه ليلة الإسراء والمعراج من الغرائب والعجائب كان سبباً لاعتقاد الكفار أنه صلى الله عليه وسلم كاذب ، لزعمهم أن هذا الذى أخبر به لا يمكن وقوعه . فهو سبب لزيادة الضالين ضلالا . وكذلك الشجرة الملعونة فى القرآن التى هى شجرة الزقوم . فهى سبب أيضاً لزيادة ضلال الضالين منهم؛ لأن النبى صلى الله عليه وسلم لما قرأ ﴿ إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم ﴾

قالوا : ظهر كذبه ، لأن الشجر لا ينبت فى الأرض اليابسة فكيف ينبت فى أصل النار ؟

وكقوله تعالى : ﴿ وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ﴾ ، لأنه صلى الله عليه وسلم لما قرأ قوله تعالى : ﴿ عليها تسعة عشر ﴾ .

قال بعض رجال قريش : هذا عدد قليل فنحن قادرون على قتلهم ، واحتلال الجنة بالقوة ، لقلة القائمين على النار التى يزعم محمد صلى الله عليه وسلم أنا سندخلها . والله تعالى إنما يفعل ذلك اختباراً وابتلاء ، وله الحكمة البالغة فى ذلك كله سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً .

قوله تعالى : ﴿ ورعد ﴾ ضرب الله المثل بالرعد لما فى القرآن من الزواجر التى تقرع الآذان وتزعج القلوب . وذكر بعضاً منها فى آيات أخر كقوله : ﴿ فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة ﴾ الآية — وكقوله ﴿ من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها ﴾ الآية — وكقوله : ﴿ إنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد ﴾ . وقد ثبت فى صحيح البخارى فى تفسير سورة الطور من حديث جبير بن مطعم رضى الله عنه أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقرأ فى المغرب بالطور . فلما بلغ هذه الآية ﴿ أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون — إلى قوله — المصيطرون ﴾ كاد قلبى أن يطير ، إلى غير ذلك من قوارع القرآن وزواجره ، التى خوفت المنافقين حتى قال الله تعالى فيهم : ﴿ يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو ﴾ والآية التى نحن بصددها ، وإن كانت فى المنافقين . فالعبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب .

قوله تعالى : ﴿ وبرق ﴾ ضرب تعالى المثل بالبرق ، لما فى القرآن من نور الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة . وقد صرح بأن القرآن نور يكشف الله به ظلمات الجهل والشك والشرك . كما تكشف بالنور الحسى ظلمات الدجى كقوله : ﴿ وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً ﴾ وقوله ﴿ ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا ﴾ وقوله : ﴿ واتبعوا النور الذى أنزل معه ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ والله محيط بالكافرين ﴾ .

قال بعض العلماء : محيط بالكافرين : أى مهلكهم ، ويشهد لهذا القول قوله تعالى : ﴿ لتأتنني به إلا أن يحاط بكم ﴾ أى : تهلكوا عن آخركم : وقيل : تغلبوا . والمعنى متقارب ، لأن الهالك لا يهلك حتى يحاط به من جميع الجوانب ، ولم يبق له منفذ للسلامة ينفذ منه . وكذلك المغلوب . ومنه قول الشاعر :

أحطنا بهم حتى إذا ما تيقنوا بما قد رأوا مالوا جميعاً إلى السلم

ومنه أيضاً : بمعنى الهلاك : قوله تعالى : ﴿ وأحيط بثمره ﴾ الآية . وقوله تعالى : ﴿ وظنوا أنهم أحيط بهم ﴾ الآية .

قوله تعالى : ﴿ يكاد البرق يخطف أبصارهم ﴾ أى : يكاد نور القرآن لشدة ضوئه يعمى بصائرهم ، كما أن البرق الخاطف الشديد النور يكاد يخطف بصر ناظره ، ولا سيما إذا كان البصر ضعيفاً ، لأن البصر كلما كان أضعف كان النور أشد إذهاباً له . كما قال الشاعر :

مثل النهار يزيد أبصار الورى نوراً ويعمى أعين الخفاش

وقال الآخر :

خفافيش أعماها النهار بضوئه ووافقها قطع من الليل مظلم

وبصائر الكفار والمنافقين فى غاية الضعف . فشدة ضوء النور تزيدها عمى . وقد صرح تعالى بهذا العمى فى قوله : ﴿ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ﴾ وقوله : ﴿ وما يستوى الأعمى والبصير ﴾ إلى غير ذلك من الآيات . وقال بعض العلماء : يكاد البرق يخطف أبصارهم أى : يكاد محكم القرآن يدل على عورات المنافقين .

قوله تعالى : ﴿ كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ﴾ ضرب الله فى هذه الآية المثل المنافقين بأصحاب هذا المطر إذا أضاء لهم مشوا فى ضوئه وإذا أظلم وقفوا كما أن المنافقين إذا كان القرآن موافقاً لهواهم ورغبتهم عملوا به كما كتهم للمسلمين وإرثهم لهم . والقسم لهم من غنائم المسلمين ، وعصمتهم به من القتل مع كفرهم فى الباطن ، وإذا كان غير موافق لهواهم . كبذل الأنفس

والأموال فى الجهاد فى سبيل الله المأمور به فيه وقفوا وتأخروا . وقد أشار تعالى إلى هذا بقوله : ﴿ وإذا دعوا إلى الله ورسوله ، ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون * وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين ﴾ .

وقال بعض العلماء : ﴿ كلما أضاء لهم مشوا فيه ﴾ أى : إذا أنعم الله عليهم بالمال والعافية قالوا : هذا الدين حق ما أصابنا منذ تمسكنا به إلا الخير ﴿ وإذا أظلم عليهم قاموا ﴾ أى : وإن أصابهم فقر أو مرض أو ولدت لهم البنات دون الذكور . قالوا : ماأصابنا هذا إلا من شؤم هذا الدين وارتدوا عنه . وهذا الوجه يدل له قوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف . فإن أصابه خير اطمأن به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ﴾ . وقال بعض العلماء : إضاءته لهم معرفتهم بعض الحق منه وإظلامه عليهم ما يعرض لهم من الشك فيه .

قوله تعالى : ﴿ يأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ، الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء ، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ﴾ أشار فى هذه الآية إلى ثلاثة براهين من براهين البعث بعد الموت وبينها مفصلة فى آيات أخر .

البرهان الأول : خلق الناس أولا المشار إليه بقوله ﴿ اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم ﴾ لأن الإيجاد الأول أعظم برهان على الإيجاد الثانى ، وقد أوضح ذلك فى آيات كثيرة كقوله ﴿ وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده الآية وقوله ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده ﴾ وكقوله ﴿ فسيقولون من يعيد ناقل الذى فطركم أول مرة ﴾ وقوله ﴿ قل يحييها الذى أنشأها أول مرة ﴾ وقوله ﴿ أفعيينا بالخلق الأول بل هم فى لبس ﴾ الآية . وكقوله ﴿ يأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث . فإنا خلقناكم من تراب ﴾ وكقوله ﴿ ولقد علمتم النشأة الأولى ﴾ الآية .

ولذا ذكر تعالى أن من أنكر البعث فقد نسى الإيجاد الأول ، كما فى قوله ﴿ وضرب لنا مثلا ونسى خلقه ﴾ الآية . وقوله ﴿ ويقول الإنسان أئذا مامت

لسوف أخرج حيا * أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً ﴾ ثم رتب على ذلك نتيجة الدليل بقوله ﴿ فوربك لنحشرنهم ﴾ الآية . . إلى غير ذلك من الآيات .

البرهان الثانى : خلق السموات والأرض المشار إليه بقوله : ﴿ الذى جعل لكم الأرض فراشاً ، والسماء بناء ﴾ لأنهما من أعظم المخلوقات ، ومن قدر على خلق الأعظم فهو على غيره قادر من باب أحرى . وأوضح الله تعالى هذا البرهان فى آيات كثيرة كقوله تعالى ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ﴾ وقوله ﴿ أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟ بلى وهو الخلاق العليم ﴾ وقوله ﴿ أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى بلى ﴾ وقوله ﴿ أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم ﴾ وقوله : ﴿ أنتم أشد خلقاً أم السماء بناها رفع سمكها فسواها ﴾ الآية . . إلى غير ذلك من الآيات .

البرهان الثالث : إحياء الأرض بعد موتها ، فإنه من أعظم الأدلة على البعث بعد الموت ، كما أشار له هنا بقوله : ﴿ وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ﴾ وأوضحه فى آيات كثيرة كقوله : ﴿ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، إن الذى أحياها لمحيى الموتى ، إنه على كل شىء قدير ﴾ وقوله : ﴿ فأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج ﴾ يعنى : خروجكم من قبوركم أحياء بعد أن كنتم عظاما رميما . وقوله : ﴿ ويحيى الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون ﴾ وقوله تعالى ﴿ حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون ﴾ إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى : ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا ﴾ لم يصرح هنا باسم هذا العبد الكريم ، صلوات الله وسلامه عليه ، وصرح باسمه فى موضع آخر وهو قوله : ﴿ وآمنوا بما نزل على محمد ﴾ صلوات الله وسلامه عليه .

قوله تعالى : ﴿ فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة ﴾ هذه الحجارة قال كثير من العلماء : إنها حجارة من كبريت . وقال بعضهم : إنها الأصنام التي كانوا يعبدونها . وهذا القول يبينه ويشهد له . قوله تعالى : ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ﴾ الآية . . .

قوله تعالى : ﴿ وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ﴾ لم يبين هنا أنواع هذه الأنهار ، ولكنه بين ذلك في قوله : ﴿ فيها أنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ولهم فيها أزواج مطهرة ﴾ لم يبين هنا صفات تلك الأزواج ، ولكنه بين صفاتهن الجميلة في آيات أخر كقوله : ﴿ وعندهم قاصرات الطرف عين ﴾ وقوله : ﴿ كأنهن الياقوت والمرجان ﴾ وقوله : ﴿ وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون ﴾ وقوله : ﴿ كواعب أترابا ﴾ إلى غير ذلك من الآيات المبينة لجميل صفاتهن ، والأزواج : جمع زوج بلا هاء في اللغة الفصحى ، والزوجة [بالهاء] لغة لا لحن كما زعمه البعض .

وفي حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم : « إنها زوجتي » أخرجه مسلم .

ومن شواهده قول الفرزدق :

« وإن الذي يسعى ليفسد زوجتي كساع إلى أسد الشرى يستثيلها »

وقول الآخر :

« فبكى بناتي شجوهن وزوجتي والظاعنون إلى ثم تصدعوا »

قوله تعالى : ﴿ ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ﴾ لم يبين هنا هذا الذي أمر به أن يوصل ، وقد أشار إلى أن منه الأرحام بقوله : ﴿ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم ﴾ .

وأشار في موضع آخر إلى أن منه الإيمان بجميع الرسل ، فلا يجوز قطع

بعضهم عن بعض فى ذلك بأن يؤمن ببعضهم دون بعضهم الآخر . وذلك فى قوله : ﴿ ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا ، أولئك هم الكافرون حقا ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء ﴾ ظاهره : أن ما فى الأرض جميعاً خلق بالفعل قبل السماء ، ولكنه بين فى موضع آخر أن المراد بخلقه قبل السماء ، تقديره . والعرب تسمى التقدير خلقاً كقول زهير .

« ولأنت تفرى ما خلقت وبعض القوم يخلق ثم لا يفرى »

وذلك فى قوله : ﴿ وقدر فيها أقواتها ﴾ ثم قال : ﴿ ثم استوى إلى السماء ﴾ الآية .

قوله تعالى : ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة ﴾ الآية وقوله : [خليفة] وجهان من التفسير للعلماء .

أحدهما : أن المراد بالخليفة أبونا آدم عليه : وعلى نبينا الصلاة السلام ؛ لأنه خليفة الله فى أرضه فى تنفيذ أوامره . وقيل : لأنه صار خلفا من الجن الذين كانوا يسكنون الأرض قبله . وعليه فالخليفة . فعيلة بمعنى فاعل . وقيل لأنه إذا مات يخلفه من بعده ، وعليه فهو من فعيلة بمعنى مفعول . وكون الخليفة هو آدم هو الظاهر المتبادر من سياق الآية .

الثانى : أن قوله خليفة مفرد أريد به الجمع ، أى خلائف ، وهو اختيار ابن كثير . والمفرد إن كان اسم جنس يكثر فى كلام العرب إطلاقه مراداً به الجمع كقوله تعالى . ﴿ إن المتقين فى جنات ونهر ﴾ يعنى وأنهار بدليل قوله ﴿ فيها أنهار من ماء غير آسن ﴾ الآية . وقوله . ﴿ واجعلنا للمتقين إماما ﴾ وقوله . ﴿ فإن طبن لكم عن شىء منه نفسا ﴾ ونظيره من كلام العرب قول عقيل بن علفة المرى .

وكان بنو فزارة شرعم وكنت لهم كشر بنى الأخينا

وقول العباس بن مرادس السلمى :

فقلنا أسلموا إنا أخوكم وقد سلمت من الإحن الصدور

وأنشد له سيبويه قول علقمة بن عبدة التميمى :

بها جيف الحسرى فأما عظامها فبيض وأما جلدها فصليب

وقول الآخر :

كلوا فى بعض بطنكم تعفو فإن زمانكم زمن خميص

وإذا كانت هذه الآية الكريمة تحتمل الوجهين المذكورين . فاعلم أنه قد دلت آيات أخر على الوجه الثانى ، وهو أن المراد بالخليفة : الخلائف من آدم وبنيه لا آدم نفسه وحده . كقوله تعالى : ﴿ قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ﴾ الآية . ومعلوم أن آدم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ليس ممن يفسد فيها ، ولا ممن يسفك الدماء . وكقوله : ﴿ هو الذى جعلكم خلائف فى الأرض ﴾ الآية . وقوله : ﴿ وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ﴾ الآية . وقوله : ﴿ ويجعلكم خلفاء ﴾ الآية . ونحو ذلك من الآيات .

ويمكن الجواب عن هذا بأن المراد بالخليفة آدم ، وأن الله أعلم الملائكة أنه يكون من ذريته من يفعل ذلك الفساد وسفك الدماء . فقالوا ما قالوا : وأن المراد بخلافة آدم الخلافة الشرعية ، وبخلافة ذريته أعم من ذلك ، وهو أنهم يذهب منهم قرن ويخلفه قرن آخر .

تنبيه : قال القرطبى فى تفسير هذه الآية الكريمة : هذه الآية أصل فى نصب إمام وخليفة ، يسمع له ويطاع ؛ لتجتمع به الكلمة وتنفذ به أحكام الخليفة ، ولا خلاف فى وجوب ذلك بين الأمة ، ولا بين الأئمة ، إلا ماروى عن الأصم حيث كان عن الشريعة أصم إلى أن قال . ودليلنا قول الله تعالى : ﴿ إنى جاعل فى الأرض خليفة ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ ياداود إنا جعلناك خليفة فى الأرض ﴾ . وقال : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض ﴾ . أى : يجعل منهم خلفاء إلى غير ذلك من الآى .

وأجمعت الصحابة على تقديم الصديق بعد اختلاف وقع بين المهاجرين والأنصار فى سقيفة بنى ساعدة فى التعيين : حتى قالت الأنصار : منا أمير

ومنكم أمير ، فدفعهم أبو بكر وعمر والمهاجرون عن ذلك . وقالوا لهم : إن العرب لا تدين إلا لهذا الحي من قريش ورووا لهم الخبر في ذلك فرجعوا وأطاعوا لقريش . فلو كان فرض الإمامة غير واجب لا في قريش ولا في غيرهم لما ساغت هذه المناظرة والمحاورة عليها . ولقال قائل : إنها غير واجبة لا في قريش ولا غيرهم . فما لتنازعكم وجه ، ولا فائدة في أمر ليس بواجب ، ثم إن الصديق رضي الله عنه لما حضرته الوفاة عهد الى عمر في الإمامة ، ولم يقل له أحد : هذا غير واجب علينا ولا عليك . فدل على وجوبها وأنها ركن من أركان الدين الذي به قوام المسلمين والحمد لله رب العالمين . انتهى من القرطبي .

قال مقيده [عفا الله عنه] من الواضح المعلوم من ضرورة الدين أن المسلمين يجب عليهم نصب إمام تجتمع به الكلمة وتنفذ به أحكام الله في أرضه . ولم يخالف في هذا إلا من لا يعتد به كأبي بكر الأصم المعتزلي ، الذي تقدم في كلام القرطبي ، وكضرار ، وهشام القرطي ونحوهم . وأكثر العلماء على أن وجوب الإمامة الكبرى بطريق الشرع كما دلت عليه الآية المتقدمة وأشباهها وإجماع الصحابة رضي الله عنهم ؛ ولأن الله تعالى قد يزع بالسلطان مالا يزعه بالقرآن . كما قال تعالى : ﴿ولقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط . وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس﴾ لأن قوله : ﴿وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد﴾ فيه إشارة إلى إعمال السيف عند الإباء بعد إقامة الحجة . وقالت الإمامية : إن الإمامة واجبة بالعقل لا بالشرع .

وعن الحسن البصري والجاحظ والبلخي : أنها تجب بالعقل والشرع معا . واعلم أن ما تتقوله الإمامية من المفتريات على أبي بكر وعمر وأمثالهم من الصحابة ، وما تتقوله في الاثني عشر إماما ، وفي الإمام المنتظر المعصوم ، ونحو ذلك من خرافاتهم وأكاذيبهم الباطلة كله باطل لا أصل له .

وإذا أردت الوقوف على تحقيق ذلك : فعليك بكتاب « منهاج السنة النبوية ، في نقض كلام الشيعة والقدرية » للعلامة الوحيد الشيخ تقي الدين

أبي العباس ابن تيمية ـ تغمده الله برحمته ـ فإنه جاء فيه بما لا مزيد عليه من الأدلة القاطعة ، والبراهين الساطعة على إبطال جميع تلك الخرافات المختلفة : فإذا حققت وجوب نصب الإمام الأعظم على المسلمين . فاعلم أن الإمامة تنعقد له بأحد أمور :

الأول : ما لو نص صلى الله عليه وسلم على أن فلانا هو الإمام ، فإنها تنعقد له بذلك . وقال بعض العلماء : إن إمامة أبي بكر رضى الله عنه من هذا القبيل ؛ لأن تقديم النبي صلى الله عليه وسلم له فى إمامة الصلاة وهى أهم شيء ، وفيه الإشارة إلى التقديم للإمامة الكبرى وهو ظاهر .

الثانى : هو اتفاق أهل الحل والعقد على بيعته . وقال بعض العلماء : إن إمامة أبي بكر منه : لإجماع أهل الحل والعقد من المهاجرين والأنصار عليها بعد الخلاف ، ولا عبرة بعدم رضى بعضهم ، كما وقع من سعد بن عبادة رضى الله عنه من عدم قبوله بيعة أبي بكر رضى الله عنه .

الثالث : أن يعهد إليه الخليفة الذى قبله . كما وقع من أبي بكر لعمر رضى الله عنهما . ومن هذا القبيل : جعل عمر رضى الله عنه الخلافة شورى بين ستة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مات وهو عنهم راض .

الرابع : أن يتغلب على الناس بسيفه وينزع الخلافة بالقوة حتى يستتب له الأمر وتدين له الناس لما فى الخروج عليه حينئذ من شق عصا المسلمين وإراقة دمائهم . قال بعض العلماء : ومن هذا القبيل قيام عبد الملك بن مروان على عبد الله ابن الزبير وقتله إياه فى مكة على يد الحجاج بن يوسف فاستتب الأمر له . كما قاله ابن قدامة فى المغنى .

ومن العلماء من يقول : تنعقد له الإمامة ببيعة واحد ، وجعلوا منه مبايعة عمر لأبي بكر فى سقيفة بنى ساعدة ، ومال إليه القرطبي . وحكى عليه إمام الحرمين الإجماع وقيل : ببيعة أربعة . وقيل غير ذلك .

هذا ملخص كلام العلماء فيما تنعقد به الإمامة الكبرى . ومقتضى كلام

الشيخ تقي الدين أبي العباس ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في « المنهاج » أنها إنما تنعقد ببيعة من تقوى به شوكته ، ويقدر به على تنفيذ أحكام الإمامة ، لأن من لا قدرة له على ذلك كآحاد الناس ليس بإمام .

واعلم أن الإمام الأعظم تشترط فيه شروط :

الأول : أن يكون قرشياً وقريش أولاد فهر بن مالك . وقيل : أولاد النضر بن كنانة . فالفهري قرشي بلا نزاع . ومن كان من أولاد مالك بن النضر أو أولاد النضر بن كنانة فيه خلاف . هل هو قرشي أولا ؟ وما كان من أولاد كنانة من غير النضر فليس بقرشي بلا نزاع . قال القرطبي في تفسير هذه الآية الكريمة في ذكر شرائط الإمام . الأول : أن يكون من صميم قريش لقوله صلى الله عليه وسلم : « الأئمة من قريش » . وقد اختلف في هذا قال مقيده [عفا الله عنه] الاختلاف الذي ذكره القرطبي في اشتراط كون الإمام الأعظم قرشياً ضعيف . وقد دلت الأحاديث الصحيحة على تقديم قريش في الإمامة على غيرهم . وأطبق عليه جماهير العلماء من المسلمين .

وحكى غير واحد عليه الإجماع ، ودعوى الإجماع تحتاج إلى تأويل ما أخرجه الإمام أحمد عن عمر بسند رجاله ثقاة أنه قال : « إن أدركني أجلي وأبو عبيدة حي استخلفته » فذكر الحديث وفيه : « فإن أدركني أجلي وقد مات أبو عبيدة استخلفت معاذ بن جبل » .

ومعلوم أن معاذاً غير قرشي وتأويله بدعوى انعقاد الإجماع بعد عمر أو تغيير رأيه إلى موافقة الجمهور . فاشتراط كونه قرشياً هو الحق ، ولكن النصوص الشرعية دلت على أن ذلك التقديم الواجب لهم في الإمامة مشروط بإقامتهم الدين وإطاعتهم لله ورسوله . فإن خالفوا أمر الله فغيرهم ممن يطيع الله تعالى وينفذ أوامره أولى منهم .

فمن الأدلة الدالة على ذلك ما رواه البخاري في صحيحه عن معاوية رضي الله عنه حيث قال : « باب الأمراء من قريش » . حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا

شعيب عن الزهرى قال : كان محمد بن جبير بن مطعم يحدث أنه بلغ معاوية وهو عنده فى وفد من قريش : أن عبد الله بن عمرو يحدث أنه سيكون ملك قحطان فغضب ، فقام فأثنى على الله بما هو أهله ، ثم قال : أما بعد : فإنه قد بلغنى أن رجالا منكم يحدثون أحاديث ليست فى كتاب الله ، ولا تؤثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأولئك جهالكم ، فإياكم والأمانى التى تضل أهلها . فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن هذا الأمر فى قريش لا يعاديهم أحد إلا كبه الله على وجهه ما أقاموا الدين » انتهى من صحيح البخارى بلفظه ومحل الشاهد منه قوله صلى الله عليه وسلم : « ما أقاموا الدين » لأن لفظة . « ما » فيه مصدرية ظرفية مقيدة لقوله : إن هذا الأمر فى قريش ، وتقرير المعنى إن هذا الأمر فى قريش مدة إقامتهم الدين ، ومفهومه : أنهم إن لم يقيموه لم يكن فيهم . وهذا هو التحقيق الذى لا شك فيه فى معنى الحديث .

وقال ابن حجر فى فتح البارى فى الكلام على حديث معاوية هذا ما نصه : وقد ورد فى حديث أبى بكر الصديق رضى الله عنه نظير ما وقع فى حديث معاوية ، ذكره محمد بن إسحاق فى الكتاب الكبير . فذكر قصة سقيفة بنى ساعدة، وبيعة أبى بكر وفيها . فقال أبو بكر : وإن هذا الأمر فى قريش ما أطاعوا الله واستقاموا على أمره . وقد جاءت الأحاديث التى أشرت إليها على ثلاثة أنحاء :

الأول : وعيدهم باللعن إذا لم يحافظوا على المأمور به . كما فى الأحاديث التى ذكرتها فى الباب الذى قبله حيث قال : « الأمراء من قريش ما فعلوا ثلاثا ما حكموا فعدلوا - الحديث » . وفيه : فمن لم يفعل ذلك منهم فعليه لعنة الله ، وليس فى هذا ما يقتضى خروج الأمر عنهم .

الثانى : وعيدهم بأن يسلط عليهم من يبالغ فى أذيتهم . فعند أحمد وأبى يعلى من حديث ابن مسعود رفعه : « إنكم أهل هذا الأمر مالم تحدثوا ، فإنه غيرتم بعث الله عليكم من يلحاكم كما يلحى القضيب » ورجاله ثقاة إلا أنه

من رواية عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن عم أبيه عبدالله بن مسعود ولم يدركه ، هذه رواية صالح بن كيسان عن عبيدالله ، وخالفه حبيب ابن أبي ثابت فرواه عن القاسم بن محمد بن عبد الرحمن عن عبيد الله بن عبد الله ابن عتبة ، عن أبي مسعود الأنصاري ولفظه « لا يزال هذا الأمر فيكم وأنتم ولاته » الحديث . وفي سماع عبيدالله من أبي مسعود نظر مبني على الخلاف في سنة وفاته وله شاهد من مرسل عطاء بن يسار . أخرجه الشافعي والبيهقي من طريقه بسند صحيح إلى عطاء . ولفظه قال لقريش : « أنتم أولى بهذا الأمر ما كنتم على الحق إلا أن تعدلوا عنه فتلحون كما تلحى هذه الجريدة » وليس في هذا تصريح بخروج الأمر عنهم ، وإن كان فيه إشعار به .

الثالث : الإذن في القيام عليهم وقتالهم ، والإيذان بخروج الأمر عنهم كما أخرجه الطيالسي والطبراني من حديث ثوبان رفعه : « استقيموا لقريش ما استقاموا لكم ، فإن لم يستقيموا فضعوا سيوفكم على عواتقكم فأبيدوا خضراءهم ، فإن لم تفعلوا فكونوا زراعين أشقياء » ورجاله ثقاة ، إلا أن فيه انقطاعا ، لأن راويه سالم بن أبي الجعد لم يسمع من ثوبان وله شاهد في الطبراني من حديث النعمان بن بشير بمعناه .

وأخرج أحمد من حديث ذي مخبر (بكسر الميم وسكون المعجمة وفتح الموحدة بعدهما راء) وهو ابن أخي النجاشي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « كان هذا الأمر في حمير فنزعه الله منهم وصيره في قريش وسيعود لهم » وسنده جيد ، وهو شاهد قوي لحديث القحطاني فإن حمير يرجع نسبها إلى قحطان ، وبه يقوى أن مفهوم حديث معاوية « ما أقاموا الدين » أنهم إذا لم يقيموا الدين خرج الأمر عنهم . انتهى .

واعلم أن قول عبدالله بن عمرو بن العاص — الذي أنكره عليه معاوية في الحديث المذكور — إنه سيكون ملك من قحطان إذا كان عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما يعني به القحطاني الذي صحت الرواية بملكه ، فلا وجه لإنكاره : لثبوت أمره في الصحيح ، من حديث أبي هريرة أن رسول الله

صلى الله عليه وسلم قال : « لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه » . أخرجه البخارى فى « كتاب الفتن » فى « باب تغير الزمان حتى يعبدوا الأوثان » ، وفى « كتاب المناقب » فى « باب ذكر قحطان » . وأخرجه مسلم فى « كتاب الفتن » « وأشراط الساعة » فى « باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء » وهذا القحطانى لم يعرف اسمه عند الأكثرين .

وقال بعض العلماء : اسمه جهجاه ، وقال بعضهم : اسمه شعيب بن صالح . وقال ابن حجر فى الكلام على حديث القحطانى هذا ما نصه : « وقد تقدم فى الحج أن البيت يحج بعد خروج يأجوج ومأجوج » وتقدم الجمع بينه وبين حديث : « لا تقوم الساعة حتى لا يحج البيت . وأن الكعبة يخربها ذو السويقتين من الحبشة » فينتظم من ذلك أن الحبشة إذا خربت البيت خرج عليهم القحطانى فأهلكهم ، وأن المؤمنين قبل ذلك يحجون فى زمن عيسى بعد خروج يأجوج ومأجوج وهلاكهم ، وأن الريح التى تقبض أرواح المؤمنين تبدأ بمن بقى بعد عيسى ويتأخر أهل اليمن بعدها .

ويمكن أن يكون هذا مما يفسر به قوله : ﴿ الإيمان يمان ﴾ أى : يتأخر الإيمان بها بعد فقده من جميع الأرض . وقد أخرج مسلم حديث القحطانى عقب حديث تخريب الكعبة ذو السويقتين فلعله رمز إلى هذا . انتهى منه بلفظه والله أعلم ، ونسبة العلم إليه أسلم .

الثانى : من شروط الإمام الأعظم : كونه ذكراً ولا خلاف فى ذلك بين العلماء ، ويدل له ماثبت فى صحيح البخارى وغيره من حديث أبى بكرة رضى الله عنه ، أن النبى صلى الله عليه وسلم لما بلغه أن فارساً ملكوا ابنة كسرى قال : « لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة » .

الثالث : من شروط الإمام الأعظم كونه حراً . فلا يجوز أن يكون عبداً ، ولا خلاف فى هذا بين العلماء .

فإن قيل : ورد فى الصحيح مايدل على جواز إمامة العبد . فقد أخرج

البخارى فى صحيحه من حديث أنس بن مالك ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اسمعوا وأطيعوا ، وإن استعمل عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة » . ولمسلم من حديث أم الحصين « اسمعوا وأطيعوا ولو استعمل عليكم عبد يقودكم بكتاب الله » . ولمسلم أيضا : من حديث أبى ذر رضى الله عنه قال : «أوصانى خليلى أن أطيع وأسمع ، وإن كان عبداً حبشياً مجدع الأطراف » فالجواب من أوجه :

الأول : أنه قد يضرب المثل بما لايقع فى الوجود ؛ فإطلاق العبد الحبشى لأجل المبالغة فى الأمر بالطاعة ، وإن كان لا يتصور شرعا أن يلى ذلك . ذكر ابن حجر هذا الجواب عن الخطابى . ويشبه هذا الوجه قوله تعالى : ﴿ قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين ﴾ على أحد التفسيرات .

الوجه الثانى : أن المراد باستعمال العبد الحبشى أن يكون مؤمرا من جهة الإمام الأعظم على بعض البلاد وهو أظهرها . فليس هو الإمام الأعظم .

الوجه الثالث : أن يكون أطلق عليه اسم العبد ، نظراً لاتصافه بذلك سابقا مع أنه وقت التولية حر ، ونظيره إطلاق اليتم على البالغ باعتبار اتصافه به سابقا فى قوله تعالى : ﴿ وآتوا اليتامى أموالهم ﴾ الآية ــ وهذا كله فيما يكون بطريق الاختيار .

أما لو تغلب عبد حقيقة بالقوة فإن طاعته تجب ، إخماداً للفتنة وصوناً للدماء مالم يأمر بمعصية كما تقدمت الإشارة إليه . والمراد بالزبيبة فى هذا الحديث ، واحدة الزبيب المأكول المعروف ، الكائن من العنب إذا جف ، والمقصود من التشبيه : التحقير وتقبيح الصورة ، لأن السمع والطاعة إذا وجبا لمن كان كذلك دل ذلك على الوجوب على كل حال إلا فى المعصية كما يأتى ويشبه قوله صلى الله عليه وسلم « كأنه زبيبة » قول الشاعر يهجو شخصا أسود :

دنس الثياب كأن فروة رأسه غرست فأنبت جانباها فلفلا

الرابع : من شروطه أن يكون بالغا . فلا تجوز إمامة الصبى إجماعا لعدم قدرته على القيام بأعباء الخلافة .

الخامس : أن يكون عاقلا فلا تجوز إمامة المجنون ولا المعتوه . وهذا لانزاع فيه .

السادس : أن يكون عدلا فلا تجوز إمامة فاسق . واستدل عليه بعض العلماء بقوله تعالى : ﴿ قال : إنى جاعلك للناس إماما . قال : ومن ذريتى ؟ قال : لاينال عهدى الظالمين ﴾ ويدخل فى اشتراط العدالة اشتراط الإسلام ؛ لأن العدل لا يكون غير مسلم .

السابع : أن يكون ممن يصلح أن يكون قاضيا من قضاة المسلمين ، مجتهدا يمكنه الاستغناء عن استفتاء غيره فى الحوادث .

الثامن : أن يكون سليم الأعضاء غير زمن ولا أعمى ونحو ذلك ، ويدل لهذين الشرطين الأخيرين . أعنى : العلم وسلامة الجسم قوله تعالى فى طالوت : ﴿ إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم ﴾ .

التاسع : أن يكون ذا خبرة ورأى حصيف بأمر الحرب ، وتدبير الجيوش ، وسد الثغور ، وحماية بيضة المسلمين ، وردع الأمة . والانتقام من الظالم ، والأخذ للمظلوم . كما قال لقيط الإيادى :

وقـــلدوا أمركم لله دركم رحب الذراع بأمر الحرب مطلعا

العاشر : أن يكون ممن لاتلحقه رقة فى إقامة الحدود . ولا فزع من ضرب الرقاب ، ولا قطع الأعضاء . ويدل لذلك : إجماع الصحابة رضى الله عنهم على أن الإمام لابد أن يكون كذلك . قاله القرطبى .

مسائل

الأولى : إذا طرأ على الإمام الأعظم فسق أو دعوة إلى بدعة . هل يكون ذلك سبباً لعزله والقيام عليه أولا ؟

قال بعض العلماء : إذا صار فاسقاً أو داعياً إلى بدعة جاز القيام عليه لخلعه ، والتحقيق الذى لاشك فيه أنه لايجوز القيام عليه إلا إذا ارتكب كفراً